لمزيد من الكتب والأبحاث زوروا موقعنا مكتبة فلسطين للكتب المصورة
https://palstinebooks.blogspot.com

لجنة الشباب المسلم

منهاج الانقلاب الاسلامي

(معرب عن الأردية)

ابو الأعلى المودودي
امير الجماعة الاسلامية بباكستان

(٣)

لجنة الشباب المسلم
(للتأليف والترجمة والنشر)

غرض اللجنة المشاركة فى تكوين الوعى الإسلامى الرشيد عن طريق :

١ — نشر الكتب الإسلامية قديمها وحديثها .

٢ — ترجمة ما كتبه أهل الشرق والغرب عن الإسلام

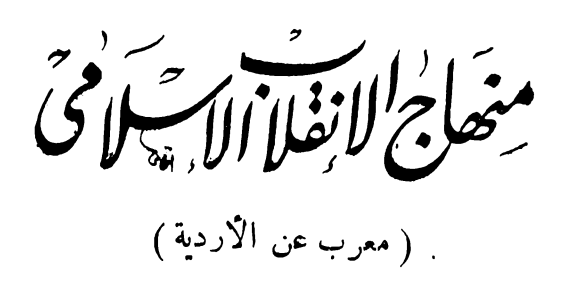
٣ — مجابهة مشاكل العصر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بأبحاث وافية ملائمة .

٤ — نشر تعاليم الإسلام بين الناس بإخراج طبعات شعبية رخيصة الثمن، أنيقة الطبع، وإنشاء الندوات الفكرية ، وإخراج مجلة إسلامية

المرســــلات باسم :

محمد رشاد رفيق سالم عضو اللجنة والمسئول عن النشر
٩٠ شارع أبى بكر الصديق بمصر الجديدة

لجنة الشباب المسلم



(معرب عن الأردية)

أبو الأعلى المودودي
أمير الجماعة الإسلامية بباكستان

(٣)

عربته عن الأردية ونشرت الطبعة الأولى بالعربية

« دار العروبة للدعوة الاســلامية » بباكستان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

هذه محاضرة أخرى ، ألقاها الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودى. رئيس تحرير مجلة « ترجمان القرآن » فى حفل حافل من طلبة الجامعة المسلمة فى عليكره وأساتذتها ؛ وذلك فى الثانى عشر من سبتمبر سنة ١٩٤٠ ، حينما اشتد النزاع بين النظريتين : نظرية القومية الهندية ونظرية القومية المسلمة المتطرفة ، وقد بلغ من تمادى المسلمين فى ذلك وغلوهم فى الدعوة إلى القومية المسلمة ومصارمة القومية الهندية ، أن غفلوا عن دعوة الإسلام الحقيقية وتعامَوْا عن واجب شهادة الحق وجعلوا يسخرون من كل من ذكّرهم بهذه الفريضة الخطيرة وبيّن لهم محاسنها ودعاهم إلى اتباع سبيلها .

فى مثل هذه الظروف القاسية قام الأستاذ المودودى خطيباً فى أكبر مراكز المسلمين الثقافية يبين للناشئة الحائرة منهاج

الانقلاب الإسلامى وطريقه الواضح المستبين ، و ينير لهم سبيل الجهاد والكفاح الحقيقيين ، فأصاب المحَزَّ وطبق المفصل ، وكان من أثرها أن فُتحت قلوب غلف وآذان صم ، واعترف جماعة من المؤمنين بالقومية أن هذا هو الحق ، إلا أنهم آثروا العاجل على الآجل ، فذاقوا مغبته وذاقت الأمة مغبة أعمالهم وما يوم حليمة بسر .

أُلقيت هذه المحاضرة قبل أحد عشر عاماً وطبعت منها عشرات الألوف من النسخ بالأردية شأن سائر رسائل الدعوة التى عنيت بنشرها الجماعة الإسلامية ، وترجمت كأخواتها بالإنكليزية وكثير من اللغات الهندية ، أما الترجمة العربية فقد عنيت بنشرها « دار العروبة للدعوة الإسلامية » قبل ثلاث سنين ، فنوهت بها المجلات الدينية والعلمية أحسن[1] تنويه ،

(١) راجع مثلا مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق (٢٤ / ٤) كلمة ضافية بقلم الأستاذ الشيخ محمد بهجت البيطار ، وكذلك اقرأ فى مجلة « لسان الدين » (الجزء الخامس للسنة الثالثة) بتطوان (المغرب) كلمة ممتعة بقلم الأستاذ عبد الله كنون رئيس تحرير المجلة .

بوتلقتها الأوساط الإسلامية فى البلدان العربية بالقبول مما حفزنا إلى المضى فى تعريب هذه الرسائل ؛ رسائل الدعوة والفكر الإسلامى ، التى دبجها يراع الأستاذ المودودى — أمير الجماعة الإسلامية فى باكستان — ونخبة من زملائه .

وها هى الطبعة الثانية من « منهاج الانقلاب الإسلامى » تتحلى بالطبع فى مصر — قبة الإسلام — بعد شىء من التنقيح والتهذيب ، وذلك باقتراح من إخوان لنا فى الدين والعلم من حملة لواء الدعوة فى أرض الكنانة ، ممن اجتمعت قلوبنا وقلوبهم على حب الإسلام والاستماتة فى سبيله ، جزاهم الله عن الإسلام وأهله خير الجزاء ، وعسى أن يوفقنا جميعاً فى العمل لإقامة الدين وإنعاش دعوته من جديد، إنه ولى التوفيق وإنه سميع مجيب .

والمأمول أن تعقبها رسائل أخرى من هذه السلسلة عن قريب إن شاء الله ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

العاجز الفقير إلى الله
مسعود الندوى
(معتمد دار العروبة للدعوة الإسلامية)

دار العروبة راولبندى (باكستان)
لأربع عشر بقين من شهر رمضان
الأغر سنة ١٣٧٠ هجرية

منهاج الانقلاب الإسلامى

أردت أن أشرح لكم بهذه المقالة المنهاج الذى تتكون منه « الحكومة الإسلامية » كنتيجة طبعية ، فقد أصبحت هذه الكلمة اليوم حديث الناس فى محافلهم ، يكثرون من ذكرها ويتطلعون إليها شوقا و يتمنون تحقيقها ، ولكنهم لا يعلمون طرق إيجادها و إبرازها إلى الوجود ، ولذلك تراهم يختارون من الطرق والمناهج الغريبة ما يستحيل به الوصول إلى ذلك المطمح الأسمى ، فمثلهم كمثل رجل يريد الوصول إلى أمريكا بالسيارة . والسبب الوحيد لهذا التفكير القارغ أنهم قد تاقت أنفسهم لأسباب تاريخية وسياسية إلى شىء يدعى ويعرف باسم « الحكومة الإسلامية » ، ولكنهم لم يمعنوا فى المسألة ولم يفكروا فيها تفكيراً علمياً يرشدهم إلى وضعيتها الخاصة ، وكذلك لم يدققوا فيها تدقيقاً يدلهم على المناهج المخصوصة التى لابد منها لتكوينها . فالحاجة ماسة إلى أن يعنى بهذه المسألة بالدرس

والتحقيق العلمى النزيه ، حتى ينجلى الأمر ويبدو الحق لكل ذى عينين .

الارتقاء الطبعى لنظام الحكومة :

والذين لهم أدنى إلمام بعلوم العمران يعرفون أن الحكومة مهما كان من وضعيتها لا تتكون ولا توجد بالطرق المتصنعة ، فليست هى بالتى تصنع فى مصنع ثم تنقل منه وتثبت فى موضع آخر ، بل إنها تنشأ فى المجتمع نشوءاً طبعياً لأسباب مناخية ونفسية وعمرانية وتاريخية وتفاعل هذه الأسباب فيما بينها ، فتكون لها أمور أولية لازمة ومحركات اجتماعية ومقتضيات فطرية تتجمع وتتقوى حتى تنبعث منها الحكومة انبعاثا ؛ فكما ترون فى المنطق أن النتيجة تابعة للقضايا وترتيبها ، وكما تلاحظون أن المركب الكيماوى لا يتكون إلا بامتزاج الأجزاء المتناسبة فيما بينها بوجه خاص ، كذلك مما أجمع عليه علماء العمران[1] أن الحكومة الراسخة البنيان نتيجة طبعية لمقتضى الأحوال والظروف المتجمعة فى المجتمع ، كذلك يتوقف تعيين هيئة الحكومة ووضعيتها الخاصة تماماً

---

(١) العمران هو ما يسمى بعلم الاجتماع وابن خلدون أول من كتب فى هذا العلم قاطبة .

على تلك الأحوال والعوامل التى تقتضى تكونها . فكما لا يمكن أن يكون للقضايا صورة مخصوصة ثم تظهر منها بعد ترتيبها نتيجة غير ما تستدعيها تلك القضايا وترتيبها بوجه خاص ، وكما لا يمكن أن تكون للأجزاء الكيماوية خصائص ولكن الذى يظهر بعد الامتزاج والتركيب تختلف خصائصه عما يقتضيه تركيب تلك الأجزاء وتمازجها بصورة مخصوصة ، وكما لا يمكن أن تغرس شجرة الكمثرى ، وحينما تنمو وتكبر وتؤتى أكلها ، تظهر منها ثمرات شجرة التفاح أو الرّمان ؛ فكذلك ليس من الممكن أن تجتمع الأسباب لطراز خاص من الحكومة ، وطرق تعاملها أيضاً تلائم ذلك الطراز ونماءه وازدهاره ، ولكنها إذا بلغت كمالها أو كادت ، بعد ما جاوزت جميع مدارج الرّقىّ والنهوض فإذا هى تظهر فى صورة غير التى تقتضيها تلك الأسباب والعوامل. لعمر الحق إن ذلك لا يمكن أبداً ، كما بيّنته آنفاً .

ولا يحسبن أحد أنى أريد بهذا القول إثبات الجبر ونفى الاختيار ،

والإرادة الإنسانية ، فمما لا مراء فيه أن لأعمال الأفراد والجماعات يداً نافذة فى تعيين وضعية الحكومة ، ولكن الذى أريد أن أؤكده فى هذا المقام أنه لا بد من جمع أسباب تلائم طبيعة الوضعية المنشودة للحكومة وفطرتها الخاصة وانتهاج طريق للعمل يوصل إليها ، فلا جرم أن تقوم حركة تلائمها فى طبيعتها ، وأن تتهيأ السيرة الفردية والأخلاق الاجتماعية حسب ما تقتضيه الغاية المنشودة ، وكذلك لا بد لها من زعامة وعمل اجتماعى وفق ما تتطلبه هيئة ذلك النظام الخاص الذى نحن بصدد إيجاده ، فإذا تجمعت هذه العوامل والأسباب تفاعل بعضها فى بعض وعلا شأنها وقوى أمرها بعد مراس وصبر عظيم ، حتى كادت تندفع اندفاع السيل ، ولم يبق فى مكنة نظام آخر أن يقوم فى وجه المجتمع الذى تولد من تفاعل تلك الأسباب والعوامل ويبقى بقاءه ، إذا كان الأمر كذلك فحينذاك يثبت ويحل محله النظام المنشود الذى سعت فى إيجاده وتكوينه تلك الأسباب القوية والعوامل المؤثرة النافذة ، فمثله كمثل بذرة تعيش إلى ماشاء الله من مدة فى بطن الأرض ثم تخرج على وجه الأرض

شجرة تنمو وتكبر حتى تصير باسقة ، فهناك تثمر تلك الأثمار التى تنزع إليها بنيتها الفطرية . فإذا أنعمت النظر فى ما قلت وسبرت غوره ، تبين لك الأمر وعرفت أن الأمة التى تبغى نظاماً للحكومة خاصاً ، ثم رأيتها تناقضه فى زعامتها وسيرتها الفردية والجماعية وفى المناهج والسبل التى اختارتها لنفسها ، ومع ذلك ترجو أن يأتى عليها يوم تظفر ببغيتها وتبلغ قصدها ، فلا شك أنها أمة بلهاء لا حظ لها من ثقوب الفكر وسداد الرأى .

الحكومة الفكرية :

فلننظر الآن فى الحكومة التى نسميها « الحكومة الإسلامية » ، ما هى وضعيتها الخاصة ؟

فأول ما يظهر لنا من خصائص الحكومة الإسلامية — التى تمتاز بها عن غيرها — أنه ليس لعنصر القومية[1] حظ فى إيجادها

---

(١) ينبغى أن لا يغيب عن بال القارىء أن القومية الممقوتة فى الإسلام هى التى تدعى اليوم nationalism وهى فكرة سياسية تناقض مبادىء الإسلام كما لا يخفى . أما القومية المترادفة مع كلمة (الجنسية nationality فلا مشاحة فيها ، لأن الإسلام لا يحول بين المرء وبين العطف على بنى قومه وعشيرته والتودد إليهم . (م . الندوى) .

وتركيبها ، وإنما هى دولة فكرية مؤسسة على مبادىء وغايات معيّنة مبيّنة واضحة . ونظرية الدولة الفكرية هذه ما زالت ولا تزال غريبة لا يعرفها العالم ولم يستأنس بمزاياها ، وذلك أن الناس ما كانوا يعرفون فيما مضى من القرون والأجيال من الحكومات إلا ما يؤسس على دعائم البيوتات أو الطبقات ثم عرفوا فيما بعد الحكومات التى تقوم على دعائم السلالة أو القومية أما الدولة الفكرية القائمة على مبادىء وغايات بحيث من قبلها وأعرب عن استمساكه بها أصبح مشاركاً فى تسيير دفتها من غير أن يُنظر إلى جنسيته أو سلالاته ، فمما لم يخطر على قلب بشر وما اتسعت صدور العالم الضيقة لمثله قط .

فالمسيحية قد تراءت لها صورة منها مبهمة غامضة ، ولكنها لم يَتَسَنَّ لها نظام فكرى تام يمكن أن يؤسس دولة على قواعده ؛ وكذلك تجلّت للناس لمحة من الدولة الفكرية فى الثورة الفرنسية ولكنها ما لبثت أن اختفت فى ظلمات القومية . وكذلك قامت الشيوعية تبث الدعاية لمبدأ الدولة الفكرية فى أول أمرها وقد سعت فى تأسيس

حكومة على أساس هـذا المبدأ حتى بدأ العالم يستأنس به ويتفطن لما تشتمل عليه من حسنات ، إلا أنه قد دبّ دبيب الوطنية الملعونة فى عروقها أيضاً . فالإسلام هو المنهاج الفـكرى الوحيد الذى يمتاز من بين الأفكار والمذاهب — من لدن أقدم عصور التاريخ إلى يومنا هذا — بأنه يقيم على أساس الفـكرة فحسب نظاماً للحكومة مطهراً من العصبيات الجنسية وأقذارها ، ويدعو الناس كافة إلى الإيمان بها والانضواء تحت لوائها حتى تتشكل حكومة فـكرية غير مقيدة بجنس ولا قومية .

ولا شك أن مثل هذه الحـكومة عجيبة فى وضعها غريبة فى هيئتها والعالم من حولها سائر فى طريق غير طريقها ، ومن ثم ترى أن أبناء العصر — حتى المسلمين أنفسهم — قاعدون عن التفطن لمزاياها وإدراك جميع ما تتضمنه من المحاسن والمنافع ؛ فالذين وُلدوا فى بيوت المسلمين وترعرعوا فيها لـكنهم تثقفوا بثقافة أوروبية واقتبسوا نظرياتهم وآراءهم فى العمران والاجتماع من تاريخ أوروبا وسياستها وعلومها العمرانية ، لا تقبل أذهانهم

هذه الفكرة الإسلامية أصلا ، ومن ثم ترى أنه لما انتقل زمام الأمر إلى أمثال هؤلاء الرجال فى الأقطار التى تتمتع بنوع من الاستقلال ومعظم أهلها من المسلمين لم يجدوا أمامهم فكرة غير فكرة الدولة القومية ، لأنهم لم يكن لهم علم بالإسلام ومبادئه ونظمه الخالدة ، ولم يقرع أسماعهم شىء من تصوّر الدولة الفكرية ، وكذلك شأنهم فى بلادنا الهندية[1] فإن المسلمين الذين تثقفوا من أهلها بالثقافة الغربية يستعصى عليهم إدراك هذه الحقيقة السامية ، فإنهم وإن كانوا يلهجون بذكر الحكومة الإسلامية مضطرون بطبيعتهم وثقافتهم أن لا يهتدوا إلا إلى الدولة القومية ، وكل ما يقع اختيارهم عليه من مناهج الفكر لا يخرج عن دائرة الفكرة القومية ، وكل ما ينهجونه من سبيل لا يكون إلا سبيل القومية ، فلأجل ذلك تراهم لا يهمهم اليوم إلا أن ينتقل زمام الأمر إلى الأمة التى تتسمّى بالمسلمين أو على الأقل يحصل لهم اقتدار سياسى فى ناحية من نواحى هذا القطر العظيم .

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة سنة ١٣٥٩ هـ ، ١٩٤٠ م كما أشرنا إليه فى المقدمة .

وكلما فكَّر هؤلاء وبحثوا فى الطريق التى توصلهم إلى مطمحهم القومى لا يتجلى لهم إلا تلك المناهج التى تختارها أمم العالم عامة لتحقيق مطالبها السياسية ، وذلك أن يُجمع كل رطب ويابس من عناصر الأمة على رصيف واحد ويُتخذ من تلك العناصر الصالحة والفاسدة كتلة متضامنة تنفخ فيها روح القومية ، ويكون لهم سلطة مركزية وحرس قومى وجند قومى ، وتتكون لهم دول قومية فى الأقطار التى يكون لهم فيها الأغلبية عملاً بالمبدأ الجمهورى المعروف « الحكم للأغلبية » . وأما البلاد التى يكون فيها عددهم أقل من غيرهم فيريدون أن تضمن لهم المحافظة على حقوقهم وخصائصهم القومية كما تحب الأقليات القومية فى سائر بلاد العالم أن تحافظ على خصائصها القومية ، ويكون لهم سهامٌ معينة فى مناصب الحكومة وفى دوائر التعليم والانتخاب ، وينتخبوا نوابهم بأنفسهم ويشتركوا فى تشكيل الوزارات من حيث أنهم أمة مستقلة بالمعنى العصرى الجمهورى فهؤلاء المسلمون القوميون يفعلون كل ما تفعل الأقوام

الأخرى ولا يتحرجون من ذلك أى تحرّج ، ولـكنهم يستغلون كلمات الأمة والجماعة والملة والأمير وطاعة الأمير ، وغيرها من الكلمات المصطلحة فى الشرع ولـكنهم — لما تطبعوا به من فكرتهم الإسلامية القومية — لا يفهمون من هذه المصطلحات إلا ما يريدونه من معانى دينهم الجديد « دين القومية » وقد ساعدهم حسن الحظّ إذ وجدوا تلك المصطلحات الملائمة لأفكارهم فى ما وجدوا بين أيديهم من كتب الشرع فاستخدموها لإخفاء ما فى أنفسهم من الفكرة المناقضة للاسلام تحت ستار هذه الكلمات والمصطلحات الشرعية.

فإذا عرفت ما ذكرنا من طبيعة الحكومة الفكرية ووضعيتها الخاصة فلا يأخذنك شىء من العجب إذا قلنا : « إن مثل هذه الفكرة ومثل هذه الحركة وبرنامج العمل لا تصلح أن تكون نواة لمشروع الحكومة الفكرية أو أساساً لبنيانها فضلا عن أن تكون عوناً فى إكمال بناء هذا الصرح العظيم وإتمامه ، بل الأصوب والأصح أن كل جزء من أجزاء تلك الفكرة وذلك البرنامج معول من معاول الهدم ، يأتى ببنيان الحكومة

الفكرية من القواعد ؛ فإنه من مبادىء الحكومة الفكرية أن الحكومة التى تقوم على أساسها لا تنظر إلى الأقوام والقوميات أو العشائر والقبائل بل إنما هى تنظر إلى الإنسان بعين الإنسانية وتعرض على الناس كافة مبادىء وغايات مبينة واضحة وتقول لهم: « إن سعادتكم وفلاحكم فى أن تؤسسوا نظام المدنية ونظام الحكم على هاته القواعد ، وكل من قبلها يكون نصيبه فى إقامة هذا النظام وإدارته مثل نصيب سائر المسلمين المؤمنين بهذه الفكرة سواء بسواء ». فقل لى بربك ، كيف يقوم بهذه الدعوة من تطبعت فكرته ولسانه وأعماله وحركاته بطابع القومية والتعصب لها ؟ فإنه قد أغلق على نفسه باب الدعوة للإنسانية عامة وأوقع نفسه فى ورطة من الخطأ فى أول خطوة . والأمم والشعوب التى أعماها التعصب القومى والتى لا تتنازع فيما بينها ولا تتحارب إلا لأجل القومية والدول القومية إذا أردنا أن ندعوهم إلى مبادىء الإنسانية السامية وقواعد السعادة البشرية فهل يكون من المعقول أو نكون على حق إذا شرعنا فى هذه الدعوة بمطالبة

الحقوق القومية والدولة القومية لأنفسنا ؟ وماذا يكون رأيك فى رجل أراد أن يقوم بحركة منع الناس عن المقاضاة والتحاكم فبدأ هذه الدعوة بأن رفع بنفسه قضية إلى المحاكم ؟

الخلافة الإلهية :

والمزية الثانية للحكومة الإسلامية أن الأساس الذى يقوم عليه بناؤها هو تصور حاكمية الله الواحد الأحد ، ونظريتها[1] الأساسية أن الأرض كلها لله وهو ربها والمتصرف فى شئونها ، فالأمر والحكم والتشريع كلها مختص بالله وحده ، وليس لفرد أو أسرة أو طبقة أو شعب بل ولا للنوع البشرى كافة شىء من سلطة الأمر والتشريع ، فلا مجال فى حظيرة الإسلام ودائرة نفوذه إلا لحكومة يقوم فيها المرء بوظيفته خليفة لله تباركت أسماؤه ولا تتأتى هذه الخلافة بوجه صحيح إلا من جهتين : إما أن يكون ذلك الخليفة رسولا من الله ، أو رجلا يتبع الرسول فيما جاء به من الشرع والقانون من عند ربه .

---

(١) من شاء شرح هذه النظرية وبيانها فليراجع رسالتنا « نظرية الإسلام السياسية » .

فالذين آمنوا بهذا القانون وأظهروا استعدادهم لاتباعه والعمل به هم سواسية فى إدارة أمر الخلافة ،و إنما ينظر فى أمر الخلافة وتدبير شئونها بشعور من المسلمين جميعاً أن كل واحد منهم فرادى وجماعات مسئول عند الله الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض ، وهو العليم بسرائر النفوس وكوامن الصدور والذى لا يعجزه أحد فى حياته ولا بعد مماته ، وإنه ما ألقيت إليهم مقاليد الخلافة ليستعبدوا عباد الله و يأمروهم بالخنوع لهم أو يضربوا عليهم ضرائب فادحة ليبنوا بها مبانى شاهقة لأنفسهم ، و ليستغلوا مناصبهم وسلطتهم لاتباع الشهوات والانغماس فى ملذات الحياة ، بل إنما ألقيت على عواتقهم مسئولية الخلافة لتنفيذ القانون الإلهى العادل فى عباده . فالذى ينبغى أن يذكروه دائما أنهم إن قصروا فى اتباع هذا القانون أو القيام بواجب تنفيذه أو أدخلوا فى أعمالهم شيئاً من الأثرة أو الأنانية أو التعصب أو المحاباة أو الخيانة ، فلا جرم أنهم يعاقبون عند الله ولو فاتتهم العقوبة فى هذه الحياة الدنيا ونجحوا فى التخلص منها بحيلة أو مكيدة .

والبنيان الذى يقوم على أساس هذه النظرية يختلف عنه فى الدول اللادينيـة اختلافاً كلياً فى بنيته وطبيعته وهيئته التركيبية ، والدولة التى تقوم على أساسها تحتاج فى تأسيس بنيانها وإدارة شئونها إلى عقلية مخصوصة وخُلُق مخصوص وسـيرة مخصوصة ، فجنودها وشرطتهـا ومحاكمها وضرائبهـا وخطتها الإدارية وسياستها الخارجية وقوانينها للسـلم والحرب كلها تختلف اختلافاً كلياً عن أمثالها فى الدول اللادينية ، فقضاة هذه ورؤساء محاكمها ليسوا بأهل لأن يناط بهم أى عمل — مهما كان حقيراً — فى محاكم الدول الإسلامية ، وكذلك رؤساء الشُّرْطة فى تلك الدول لا يستحقون أن يفوض إليهم حتى ولا وظيفة شرطى من عامة الشرط . وقواد العساكر وأمراء الجنود لا يمكنهم أن يتجندوا فى الجيش الإسلامى ، وأما وزراء خارجية تلك الدول اللادينية فلا عجب إذا سـيقوا إلى السجن عقاباً لهم على ما اقترفوه من الـكذب وما ابتـكروه من أساليب المـكر والخديعة فضلا عن أن يتولوا منصباً من مناصب المسئولية فيها .

وبالجملة فإن كلّ من أعد لإدارة الحكومات اللادينية ورُبِّى تربية خلقية وفكرية ملائمة لطبيعتها لا يصلح لشىء من أمور الحكومة الإسلامية ؛ فإنها تتطلب وتقتضى أن يكون سائر أجزاء حياتها الاجتماعية وجميع مقومات بنيتها الإدارية من الرعية والمنتخبين والنواب والموظفين والقضاة والحكام وقواد العساكر والوزراء والسفراء والنظار لمختلف دوائرها ومصالحها — تقتضى أن يكونوا من الطراز الخاص والمنهاج الفذ المبتكر ، وهى تطلب بسجيتها رجالاً يخشون الله ويخافون حسابه ، يؤثرون الآخرة على الحياة الدنيا ، ويكون النفع والضرر الخلقيان عندهم أثقل فى الميزان وأرجح كفة من النفع العاجل والضرر اللاحق فى الحياة العاجلة ، والذين هم يمسكون فى كل حال بما وضع الله من دستور وبما سنَّ لهم من منهاج العمل للأبد ، والذين هم يسعون دائماً وراءَ ابتغاء مرضاة الله ، والذين لم يتخذوا من أغراضهم القومية والشخصية والشهوات سلطاناً على أنفسهم ، والذين طهروا أنفسهم من ضيق النظر والتعصب الأعمى ، والذين لا تأخذهم نشوة الكبرياء إذا آتاهم الله نصيباً من الملك والسلطان ، والذين

لا يمدون أعينهم إلى زهرة الحياة الدنيا ونعيمها ، والذين ليسوا بجُوَّعٍ إلى الثروة والجاه ، والذين إذا امتلكوا خزائن الأرض كانوا أمناء بررة ، والذين إذا أُلقيت إليهم مقاليد الأمر حرّموا النوم على أنفسهم وقضوا الليالى ساهرين حراساً لتكون الرعية فى مأمَن على أنفسها وأموالها وأعراضها ، والذين إذا دخلوا أرضاً غزاة فاتحين أمِن أهلها منهم وما خافوهم على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم بل وجدوا كل جندى منهم حافظاً لعزهم وشرفهم ، ذابًّا عن حريمهم ، والذين يكون لهم سمعة حسنة وكلمة مسموعة فى السياسة الدولية بحيث تعتمد الأمم على حبهم للحقّ والعدل وتثق بوفائهم للعهود ورعيهم للذمم . فهؤلاء وأمثالهم ومن فى طبقتهم يمكن أن تتكون منهم الحكومة الإسلامية ، وهم الذين يقدرون على إدارة أمرها وتيسير دفة شئونها . وأما عباد الشهوات وطلاب الدنيا الدنيئة الذين يتبعون مايسمى اليوم « بمذهب المنفعة » والذين من ديدنهم أن يضعوا أصولا ومبادىء جديدة بين كل حين وآن إرضاء لشهواتهم

وأغراضهم ومسايرة لمنافعهم الذاتية أو مآربهم القومية ، والذين لا يخافون الله ولا يرجون الآخرة ، بل لا يكون نصب أعينهم إلا النفع العاجل والرقيّ المادى فى كلّ ما يأتون من عمل وما يتخذونه من خطة ، فهؤلاء لا يصلحون أن يُفوض إليهم أمر الحكومة الإسلامية ، بل الحق أن مثلهم فيها كمثل أَرْضة فى خشبة تأكلها أكلا وتهددها بزوالها من مكانها .

سبيل الانقلاب الإسلامى :

فإذا عرفت ما ذكرنا من وضعية الحكومة الإسلامية ، فتعال نفكر فيما عسى أن يكون من سبيل لتحقيقها والوصول إليها ، فالحكومة لاتتكون إلا وفق ماتهيأ له العوامل الفكرية والخلقية والمدنية فى المجتمع كما قلت فى مفتتح الكلام ، فكما لا يمكن أن تكون الشجرة منذ أول أمرها إلى أن يتم نماؤها شجرة الكمثرى أو الليمون مثلا — وإذا آن أوان إثمارها فإذا هى شجرة التفاح أو الرّمان ، كذلك مثل الحكومة الإسلامية فإنها لا تظهر خارقة للعادة ، بل لابد لإيجادها وتحقيقها من ظهور

حركة شاملة مبنية على نظرية الحياة الإسلامية وفكرتها ، وعلى قواعد وقيم خلقية وعملية توافق روح الإسلام وتوائم طبيعته ، وأن يقوم بأمرها رجال يظهرون استعدادهم التام للاصطباغ بهذه الصبغة المخصوصة من الإنسانية ، ويسعون لنشر العقلية الإسلامية ويبذلون جهودهم فى بث روح الإسلام الخلقية فى المجتمع .

ثم يقوم على هذا الأساس نظام للتعليم والتثقيف يهيئ رجالاً تطبعوا بطابع الإسلام الخاص ، ويتخرج بفضل هذا النظام المؤرخون المسلمون والفلاسفة المسلمون ، والمسلمون الحاذقون فى العلوم الطبعية والاقتصادية والمالية ، والذين لهم حظ وافر فى القانون والسياسة وفى كل فرع من العلوم والفنون ؛ من الذين امتزجت الفكرة الإسلامية بلحومهم ودمائهم ، والذين تثقفت أذهانهم واتسعت مداركهم اتساعاً يؤهلهم لتدوين نظام للأفكار والنظريات ومنهاج كامل للحياة العملية مبنى على مبادىء الإسلام وقواعده ، والذين آتاهم الله من الموهبة والمقدرة ما يمكنهم أن يقارعوا به أئمة الفكر ممن لا يؤمنون بالله ولا باليوم

الآخر ويجاذبوهم بحبل حتى يبسطوا سلطان سموهم الفكرى على عقولهم وأذهانهم ويرغمونهم على الاستسلام لزعامتهم الفكرية والعقلية . ثم تقوم هذه الحركة تنمو صُعداً ، مع مالها من السيادة الفكرية والعقلية ، مكافحة ومقاومة للنظام الباطل المعوج السائد فى المجتمع الإنسانى ، وفى مثل هذا الكفاح والمقاومة يُمتحن القائمون بالدعوة وحاملوا لوائها بأنواع من المصائب والشدائد ، فيقاسون الآلام والأهوال ضرباً وقتلاً وإجلاء عن الوطن ، ويبذلون مهجهم وأرواحهم بكل صبر وجَلَد وإخلاص وعزم قوى ، ويبتلون بالشدائد ويُفتنون ، فيخرجون منها كالتبر المسبوك . وفى خلال هذا الكفاح ، وطوال مدة هذا النضال والصراع يُمثّلون — بكل مايقولون وبكل ما يعملون — تلك النظرية التى قاموا بالدعوة إليها ؛ ويظهر من كل ما يصدر عنهم من قول أو عمل أن الحكومة الفكرية يدعو إليها رجال قد استولوا على الأمد فى الصدق والعفاف وصفاء السريرة والإخلاص فى العمل والاستمساك بالمبادئ والتجرد عن الأغراض والشهوات .

ويظهر من كل ذلك أن الحكومة التى يدعو إليها أمثال هؤلاء الرجال لسعادة البشر وفلاحهم لابد أن يكون فيها سعادة للبشر وسلام ودَعَة للإنسانية المعذبة ، فبمثل هذا الكفاح تنجذب إلى هذه الدعوة أفئدة الذين يوجد فيهم شىء من الخير والصلاح ، وأما أصحاب الطباع الفاسدة والذين فى قلوبهم مرض ممن يتبعون الأهواء والشهوات فلا تزال تختفى أصواتهم ويضمحل نفوذهم شيئاً فشيئاً بإزاء تيار الحركة الجارف وسيرها الحثيث ، ويحدث انقلاب عظيم فى أفكار العامة وتتعطش الحياة الاجتماعية إلى هذا النظام المخصوص من الحكم وهناك لايستطيع أن يحيا فى هذا المجتمع الثائر المتبدل نظام آخر غير النظام الذى أعدت له المعدات ، وتهيأت له العوامل . وإذا قام هذا النظام الجديد وتشكلت هيأته فلا يعوزه رجال أكفاء للمناصب العديدة المتشعبة فى إدارة الحكومة من الموظفين إلى النظار والوزراء والقوّاد ، وذلك بفضل منهاج التعليم والتثقيف الذى أجملنا الإشارة إليه آنفاً .

هذا هو طريق الانقلاب الإسلامى والسبيل الفطرية لتحقيق فكرة الحكومة الإسلامية . ولا يخفى على من له إلمام بتاريخ الانقلابات والتطور فى الأمم قديماً وحديثاً أن نوعاً خاصاً من الانقلاب يستدعى حركة وزعامةً وعمالاً وشعوراً اجتماعياً وبيئةً خلقية من ذلك النوع نفسه ؛ فالثورة الفرنسية مثلا كانت محتاجة إلى ذلك الأساس الفكرى والخلقى الذى أوجده (روسو) (وفوليتر) و(منتسكيو) وأمثالهم من مفكرى فرنسا والانقلاب الروسى الشيوعى ما كان ليظهر ويبرز إلى عالم الوجود إلا بالنظام الفكرى الذى شيّد بنيانه ووطد دعائمه (كارل ماركس) وبزعامة (لينين) و(تروتسكى) وجهود مئات من دعاتهم ومتطوِّعيهم الشيوعيين الذين أُشربوا فى قلوبهم الشيوعية وتطبّعوا بطابعها ، وكذلك النازية الألمانية لم تكن لترسخ أصولها إلا فى أرض غزّاها المفكرون أمثال (هيجل) و(فيشته) و(غوته) و(نيتشه) وغيرهم بنظرياتهم وأفكارهم وأوجدوا لها بيئة خلقية ونفسية ومدنية

مخصوصة ، وسقاها هتلر وغيره من قادتهم بزعامتهم العبقرية الجبارة .

فكذلك شأن الانقلاب الإسلامى لا تثمر شجرته ولا تؤتى أكلها إلا إذا قامت حركة شعبية على أساس النظريات والأحكام القرآنية ودعامة السيرة المحمدية والسنة النبوية ؛ تقوم هذه الحركة الشعبية وتنهض وتقوى حتى تُغَيِّر بجهادها المستمر العنيف أسس الجاهلية الفكرية والخلقية والنفسية والثقافية السائدة فى الحياة الاجتماعية وتأتى بنيانها من القواعد . والذى يصعب علىّ إدراكه ما يزعمون من حدوث انقلاب إسلامى إثر حركة قومية نمت وازدهرت من جراء تفاعل هذا المنهاج التعليمى العقيم الذى أناخ علينا بكلكله منذ زمن ، والذى شُيِّد صرحه المعوج على أساس الأخلاق المنفعية[1] وفلسفة الذرائع[2]

---

(١) التى لا تقصد فى أعمالها إلا مجرد المنفعة .

(٢) المذهب العملى الذى يقضى بصحة الأعمال أو فسادها حسب النتائج التى تظهر فى هذه الدنيا (م . الندوى) .

فحسب ، ولا أومن بمثل الخوارق والمعجزات التى كان يؤمن بها مسيو رينو [1] رئيس وزراء فرنسا سابقاً ، أما أنا فأرى وأعتقد أن النتائج ما هى إلا تبع لما يؤتى به من حيل وما يبذل لها من جهود .

الأمانى المعسولة :

يرى عامة المسلمين فى بلادنا أن تنظيم صفوف المسلمين إنما هو شفاء لكل داء ، ويظنون أن سبيل الوصول إلى الحكومة الإسلامية أو « الإسلام الحر فى الهند الحرة » إنما هو أن يجتمع كل من يُعدُّ من أفراد الأمة المسلمة الحاضرة منضوين تحت لواء واحد ، عاملين تحت زعامة مركزية واحدة . ولكن الحقيقة أن ذلك منهاج قومى خالص ؛ فإن كل أمة من أمم العالم إذا أرادت إعلاء شأنها والنهوض بأمرها ما اختارت إلا نفس الخطة التى

---

(١) قام المسيو رينو يخطب من إذاعة باريس وذلك قبل سقوط فرنسا بأيام فى الحرب العالمية الثانية — وكان رئيس وزرائها وقتئذ — فقال : « الآن لا ينجى فرنسا إلا معجزة ، وأنا أعتقد بالمعجزات » .

اختارها المسلمون اليوم ولا فرق فى ذلك بين الهنادك والألمان والانكليز ، وإن زعيماً متهالكاً فى حب قومه ، حاذقاً فى المداورات الدبلوماسية ، عارفاً بدقائق السياسة العملية ومُبنيّات طرقها ، كيّساً ماهراً فى تنفيذ الأمر وتسيير دفة الحكم ، يصلح أن يكون زعيما لأية أمة تطمح إلى ارتفاع شأنها ونهوض كلمتها بين الأمم سواء كان ذلك الزعيم هندياً كأمثال غاندى وجواهر لال أو أوروبياً مثل هتلر وموسولينى ، وإن مئات الألوف من الشبان الذين يطيعون قائدهم بدافع النزعة القومية ويظهرون استعدادهم للنضال والكفاح تحت لواء زعيمهم ، ليقدرون حقاً أن ينهضوا بأمتهم ويرفعوا راية مجدها ، سواء فى ذلك آمنوا باليابانية أم الصينية أم الجرمانية ، فإن القوانين الطبعية للنهوض بالقومية وإعلاء كلمتها واحدة لكل أمة وفى كل زمان . فإن كان المسلمون يعتبرون الإسلام قومية عنصرية تاريخية ولا يطمحون بأبصارهم إلاّ إلى إعلاء شأن تلك القومية العنصرية المتوارثة ، فلا جرم أن الخطة التي

اختاروها هى الحق والصواب ولا يبعد أن يتسنّى لهم بذلك أن ينجحوا فى تأسيس حكومة قومية أو ينالوا على الأقل حظهم الموفور المنشود فى إدارة الحكومة الوطنية ، وأما أن يُرجى من هذا المنهاج وهذه الخطة أن تكون لنا عونا فى الوصول إلى غاية «الانقلاب الإسلامى» ومطمح «الحكومة الإسلامية» ، فذلك من باب الأمانى المعسولة ، بل الحق أن كل خطوة فى هذا السبيل وعلى هذا المنهاج لا تكون إلا خطوة متقهقرة تُرجعنا إلى الوراء وتبعدنا عن غايتنا .

وغير خاف أن الأمة التى تتسمّى اليوم بالمسلمين قد جمعت بين أحضانها كل رطب ويابس من الأفراد والرجال ، فقد يوجد فيهم كل ما يوجد فى الأمم الكافرة من أنواع الطبائع والأخلاق ؛ فالمتسمون بالإسلام اليوم يسابقون الكفار ويزاحمونهم بالمناكب فى شهادة الزور فى المحاكم ، ويبارونهم فى أخذ الرُّشى وارتياد دور البغاء وارتكاب السرقة والتجرؤ على غيرها من الأخلاق الذميمة ، وكذلك يسيرون فى كسب

معايشهم وابتغاء رزقهم سير الكفار ؛ فأنت ترى أن المحامى المسلم يدافع عن موكله كالمحامى الكافر ، وهو يعرف أن قضيته باطلة وأن الحق فى الجانب الآخر ، يدافع عن الظالم وقلبه خال من خشية الله ، وهكذا تجد الغنى المسلم إذا أثرى والموظف المسلم إذا تولى منصباً يأتيان بكل ما يأتى به الغنى الكافر والموظف المشرك من المنكرات وسيئات الأعمال .

فالأمة التى وصلت إلى هذا الدرك الأسفل من الانحطاط الخلقى إن حشرت كل غَثّ وسمين من أفرادها فى زمرة واحدة ، كما تجمع السود والبيض من الغنم فى قطيع واحد ، ورَوَّضَتْها على رَوَغان الثعالب أو دربتها على افتراس الذئاب بتربية سياسية أو تمرين عسكرى ، فربما ينفع ذلك فى الاستيلاء على الغابات وتنفيذ الأمر والنهى فى سباعها الضوارى ، إلا أنه لا يلائم طبيعة الانقلاب الإسلامى ولا يجدى بشىء فى مهمة إعلاء كلمة الله وإقامة دينه . فمن ذا الذى يعترف لهم بسُمُوّ أخلاقهم ويؤمن بشرف سيرتهم ؟ وأية عين تغض لهم إجلالا وإكباراً ؟ ومن ينجذب قلبه إلى الإسلام إذا رآهم وشاهد

ما هم عليه من العادات والتقاليد ؟ وكيف يدخل الناس فى دين الله أفواجا متأثرين بأخلاقهم الزكية ؟ ! وأية أمة تذعن لمواهبهم وسجاياهم وتعترف لهم بالسيادة الروحية ؟ وفى أى أرض تستقبلهم الشعوب استقبالا وترحب بهم ترحيب العبيد والبؤساء بمن ينقذهم من براثن العبودية والشقاء ؟

إن إعلاء كلمة الله والدعوة إلى القيام بها تحتاج إلى رجال ذوى صلاح ، يتقون الله فى السر والعلن ، ممن لا يلهيهم عن العمل بالشريعة والاستمساك بعروتها شىء من مطامع الدنيا ولا تصرفهم عن ذلك العقبات والشدائد . ولا يُهمُّ الدعوة بعد ذلك هل برز للعمل أمثال هؤلاء الرجال من الذين ورثوا الإسلام عن آبائهم أو ممن قبلوا هذه الفكرة بأنفسهم . وأيم الحق إن عشرة رجال من أمثال هؤلاء أرجح كفة وأثقل وزنا فى ميزان الدعوة الإسلامية من الآلاف المؤلفة من ضعاف الأخلاق الذين تقدم ذكرهم آنفاً ، فالإسلام ما به من حاجة إلى خزانة من النقود الزائفة المموهة المطبوع عليها بطابع الدنانير ، بل هو ينظر فى النقود ومعدنها قبل أن

يفتتن بلمعانها وبريقها ، وذلك ليعرف رديئها من جيدها وزائفها من صحيحها ، فدينار واحد من الذهب الخالص أثمن فى نظره بكثير من القناطير المقنطرة من النقود الزائفة . ثم إن الزعامة التى تستدعيها مهمة إعلاء كلمة الله زعامة لا يمكن أن تباع وتشترى فى سوق المطامع والشهوات ، فلا تتضعضع ولا تتاجلج ولا تنحرف قيد أنملة عن المبادىء التى قامت بالدعوة إليها وحملت لواءها بيدها ، ولو هلك المسلمون كلهم جوعا أو قتلوا صبراً دفاعا عن تلك الخطة المستقيمة والعزمة القوية الجبارة وتأييداً لها .

وأما الزعامة التى لا تهتم إلا بالنفع العاجل ولا تنظر إلا فى مصالح قومها ، وتنتهج كل منهج يعود بالنفع المادى على شعبها ، وتنبذ مبادئها وأصولها وراء ظهرها إذا رأت الفائدة العاجلة فيما يناقضها ، والتى لا يرى عليها مسحة من تقوى الله والأخلاق الزكية . فالزعامة المتصفة بمثل هذه الصفات لا تصلح ، ولن تصلح ، للوصول إلى الغاية الجليلة التى يطمح إليها الإسلام .

ثم إن منهاج التعليم والتربية الحاضر الذى وضعت قواعده

حسب القول الشائع : « در مع الدهر كيف دار » لا يمكن أن يكون ملائما لطبيعة الإسلام وخدمة الدين القويم الذى يقضى على الناس ويفرض عليهم أن يلتزموا الطريق الذى أوضحه الله فى كتابه ، ويعضوا عليه بالنواجذ مهما كان من اشتداد الأخطار والأهوال . وإنى على مثل اليقين من نفسى أنه لو خُوِّل المسلمون اليوم أن يؤسسوا حكومة لهم فى بقعة من بقاع الأرض لما استطاعوا أن يقوموا بإدارة شئونها وتسيير دفتها وفق المبادىء الإسلامية ولا ليوم واحد ؛ فإنكم معشر المسلمين ، لم تعدوا المعدات اللازمة ولا هيأتم العوامل الكافية لتنشئة رجالكم وشبابكم على الطراز المخصوص للتفكير والأخلاق الذى تحتاج إليه الحكومة الإسلامية لتسيير دفة أمرها وتنظيم دوائرها العديدة المتشعبة من الشرطة والقضاء والجند والخراج والمعارف والشئون المالية والسياسة الخارجية ، ولا جرم أن هذا التعليم الذى يُلَقَّنُه الطلاب فى الكليات والجامعات العصرية اليوم يقدر على تخريج العمال والموظفين ؛ بل القضاة والوزراء للحكومات القائمة على

مبادئ غير مبادئ الإسلام . ولكنه للأسف — وعسى أن لا يسوءكم إذا قلت بصراحة ووضوح — لا يستطيع أن يُعِدَّ للمحاكم الإسلامية خادماً من خدامها ، أو يخرج للشرطة الإسلامية شرطياً من عامة الشرط . ولا يختص ذلك بالتعليم العصرى وحده ، فإن منهاج تعليمنا القديم الذى لم يؤمن بعد بدورة الأرض يماثل التعليم العصرى فى هذا الباب . وقد بلغ من عقمه وتحجره فى هذا الشأن أنه لا يقدر أن يهيئ للحكومة الإسلامية فى العصر الحاضر قاضياً واحداً أو وزيراً للمالية أو رجلا يقوم بوزارة الحرب أو ناظراً للمعارف أو سفيراً لخارجيتها . فقل لى بربك ماذا أقول فى الذين يلهجون بذكر « الحكومة الإسلامية » ثم لا يعدون لها معداتها ولا يتذرعون لها بشىء من الوسائل قل لى بالله ماذا أقول فيهم سوى أنهم لم يعرفوا حقيقة « الحكومة الإسلامية » ولم يدركوا مغزاها أصلا .

ومن الناس من يقول بتأسيس دولة قومية للمسلمين ولو غير مستندة إلى قواعد الشريعة الغراء ، يقولون به ويدعون إليه

ويغتنمون هذه الفكرة فى المرحلة الأولى ، ويزعمون أنه إذا تم لهم تأسيس دولة قومية يمكن تحويلها تدريجاً فيما بعد إلى دولة إسلامية بوسائل التعليم والتربية وبفضل الإصلاح الخلقى والاجتماعى ، ولكن شهادات التاريخ والسياسة وعلوم العمران تُفَنِّد مثل هذه المزاعم وتعدّها من قبيل المستحيلات ، وإن نجح مشروعهم كما يزعمون ، فلا شك أنه يكون معجزة ، فإن نظام الحكومة له أصل ثابت فى الحياة الاجتماعية ، كما قلت فى مُفتتح هذا المبحث ، فلا يمكن أن يحدث انقلاب ثابت فى نظامها بطريق من الطرق إلا إذا سبقه تبدّل فى الحياة الاجتماعية .

ولنضرب لك مثلا الخليفة العادل الزاهد « عمر بن عبد العزيز » رحمه الله فإنه — وإن كان وراءه عدد غير قليل من التابعين وأتباعهم — مارزق نجاحاً فى مهمته ، لأن الحياة الاجتماعية فى عصره لم تكن مستعدة بأجمعها لما كان يريد من الإصلاح . وهذا « المأمون بن الرشيد » ، كبير ملوك بنى العباس ودُرّة تاجهم ، أراد أن يحدث شيئاً من التغيير فى نظام الحكومة أوضاعها الظاهرة

دون مبادئها وأصولها ، ولكن لم يتحقق له ما أراد ، وكذلك الملكان العظيمان من ملوك الهند المسلمين «محمد تغلق» (٧٢٦ هـ إلى ٧٥٢ هـ) «وعالمكير» (١٠٦٨ هـ — ١١١٨ هـ) على ما كانا عليه من الورع والتجرد عن المطامع والشهوات الدنيئة ، لم يتمكنا من إحداث أى تغيير فى نظام الحكومة .

وقد كان هذا كله فى عصر الملكية المطلقة حينما كان للملك الأمر والنهى ، فليت شعرى ! كيف يمكن أن تكون دولة قومية مؤسسة على طراز الجمهورية ، عوناً لنا ومساعداً فى استكمال هذا الإصلاح الأساسى و إنجاز مهمته ؟ فإن السلطة فى الحكومات الجمهورية لا ينالها إلا من رضى عنه الجمهور ووضعوا ثقتهم فيه ، فإن لم تكن العقلية الإسلامية والفكرة الإسلامية تغلغلتا فى عروق الناخبين وامتزجتا بلحومهم ودمائهم ، و إن لم تكن الأخلاق والسجايا الإسلامية الزكية مهوى أفئدتهم ومقصد آمالهم ، و إن لم يكونوا مستعدين للاستسلام والخضوع لذلك العدل الآلهى النزيه وتلك المبادئ الثابتة الراسخة التى هى قوام الحكومة الإسلامية وقطب

رحاها — إن لم يكن الجمهور متصفاً بهذه المزايا ، فلا يمكن لمسلم تقىّ صادق النزعة كامل الإيمان أن يُنتخب[1] عضواً فى مجالسهم النيابية والتشريعية بأصواتهم وآرائهم . وإنما ينال السلطة والتغلب بهذه الطريقة كل من يشهد سجل الإحصاء الرسمى له بالإسلام ، وإن لم يعرف من الإسلام إلا اسمه وشهدت نظرياته وأعماله[2] بالمروق عن الدين والجهل بمبادئه . ومعنى ذلك أنه إن انتقل زمام الأمر إلى أمثال هؤلاء الرجال ، لا يكون موقفنا فى دائرة حكمهم إلا مثل ما يكون تحت الحكومات التى لا تدين بالإسلام ، بل الحق أن موقفنا فى دائرة حكمهم يكون أكثر عنتاً ، وأسوأ حالاً ، لأنّ الحكومة القومية التى اتخذت لنفسها شارة من الإسلام خداعة ، تكون أجرأ بكثير[3] من الحكومات غير الإسلامية على القيام فى وجه الانقلاب الإسلامى واضطهاد القائمين به ، فالأعمال التى تعاقب عليها الحكومات غير الإسلامية بالحبس مثلاً لا تتحرج تلك الحكومات القومية من المعاقبة بالإعدام والنفى عن تلك الأعمال نفسها ، وضغث على

(١) ، (٢) ، (٣) مصدق ذلك كله الحال فى مصر (اللجنة)

أبالة أن زعماءها وقوادها لا يزالون مع هذا وذلك ، يُلقّبُون بالغُزاة المجاهدين فى حياتهم و يُعَدُّون من الشهداء الصالحين بعد مماتهم . فالخطأ ، كل الخطأ ، أن نظن أن مثل هذه الحكومات القومية يمكن أن تساعدنا فى مهمتنا وتؤازرنا فى إحداث الانقلاب الإسلامى بوجه مَّا .

فالمسألة أمامنا الآن أنه إذا كان لابد لنا فى مثل هذه الحكومات القومية أيضاً من سعى وكفاح لتغيير أسس الحياة الاجتماعية وتشكيلها من جديد ، و إذا كان علينا أن نسعى وراء هذه الغاية ونواصل جهادنا فى هذه السبيل باذلين مهجنا وأرواحنا من غير معونة من الحكومة أو على الرغم من اضطهادها وصدها عن سبيل الله — إذا كان لابد من ذلك فى المستقبل ، فما الذى يمنعنا من انتهاج هذا المسلك والجرى على هذه الخطة منذ اليوم ، ومالنا نضيع الأوقات سدى فى انتظار الحكومة القومية المرجوة المتسمة بالإسلام كذباً وزوراً ؟ ولماذا نُسَفِّه أحلامنا ونحمق أنفسنا بإضاعة قوانا وصرف مجهوداتنا فى سبيل إقامتها وتوطيد دعائمها

ونحن نعلم علم اليقين أن تلك الحكومة القومية ستكون عقبة كئوداً فى سبيل غايتنا ، فضلا عن أن تكون مؤازرة لنا ومساعدة فى مهمتنا ؟ .

المنهاج المخصوص للحركة الإسلامية :

يحسن بى الآن أن آتى ببيان تاريخى يتضح به كيف يحدث تغيير جوهرى فى أساس الحياة الاجتماعية وكيف يؤسس بنيانها من جديد لتشييد صرح الانقلاب الإسلامى وكذلك أعرض عليكم المنهاج العملى المخصوص الذى يصعد بنا إلى المرتقى الذى نطمح إليه بأبصارنا فى هذا الكفاح .

الإسلام فى الحقيقة هو عبارة عن الحركة التى تريد بناء صرح الإنسانية بأسره على حاكمية الله الواحد الأحد ، وهذه الحركة جارية على سنن واحد منذ أقدم عصور التاريخ ؛ وقادتها هم صفوة رجال الإنسانية الملقبون برسل الله ، فإن أردنا القيام بهذه الحركة والعمل على تسييرها ، فلابد لنا من اتباع هؤلاء القواد وقفو آثارهم ، لأنه ليس ، ولا يمكن أن يكون ،

لهذا النوع من الحركة من برنامج عملى غير ذلك ، وحينما نشرع بهذا الصدد فى تتبع معالم الأنبياء عليهم السلام ، والبحث عن آثار حياتهم ، تعترض سبيلنا عقبة عظيمة ، فإن كتب التاريخ لم تحفظ لنا عن تلك الرسل وعما قاموا به من عمل وما اتبعوه من خطة إلا نزراً قليلا لا يروى الغليل ولا يشفى العليل .

نعم ! قد ورد فى القرآن الكريم لمحات موجزة عن أعمالهم وطرق دعوتهم ، لكنها لا تؤدى الغرض المطلوب ، بحيث يمكن أن يُتَّخَذ على أساسها مشروع للعمل جامع . وأما العهد الجديد من الكتاب المقدس ، فلا جرم أنه يشتمل على أقوال معزُوَّة إلى السيد المسيح — عليه السلام — ضعيفة الإسناد ، يتضح منها بعض الوضوح كيف تدار الحركة الإسلامية فى بداءة عهدها ، وما هى المسائل التى تعرض لها فى أول نشأتها ؟ ولكنه ما قُدِّر لسيدنا المسيح عليه السلام أن يجتاز المراحل التى تمر بها الحركة فى أدوار نضوجها و بلوغها مراقى الكمال ، ومن ثم لا نجد فى ما نسب إليه من الأقوال عيناً ولا

أثرا من تلك المراحل والأدوار . فلم يبق من تلك الرسل إلا سيدنا ومولانا الرسول النبي الأمى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ؛ فحياته المباركة هى المرجع الوحيد لاجتلاء وجه الحقيقة فى هذا الشأن .

ولا أقول ذلك عن هوى فى ذاته عليه السلام أو شغف بشخصيته فحسب ، بل الحق أن كل من يريد القيام بهذه الحركة والاطلاع على ما تجتازه من الأدوار المتشعبة مضطر بطبيعة الحال إلى الاستقاء من عين حياته الصافية . فإن محمداً — صلوات الله وسلامه عليه — هو القائد الوحيد من بين قواد هذه الحركة ، الذى نجد فى حياته الجليلة تاريخاً شاملا لهذه الحركة من أول عهدها بالدعوة إلى تأسيس الدولة الإسلامية ، وكذلك نجد فى مشكاة سيرته الطيبة ما يقتبس منه ويستضاء به فى كل ما يعرض من المسائل والمشاكل بعد تأسيس الدولة ، من هيئتها ودستورها وسياستها الداخلية والخارجية ونظم تسيير شئون الملك — نجد فى حياته الكريمة معلومات تفصيلية مستندة وافية عن سائر هذه

الأمور . وها أنا أعرض عليكم صورة إجمالية لمنهاج العمل المختار في هذه الحركة ، مستقياً من ذلك المنهل الصافي ، ومستنداً إلى ذلك المرجع الوحيد ، و بالله التوفيق .

فالذى يعرفه القاصى والدانى أن العالم كان مصاباً بأمراض خلقية وعمرانية واقتصادية وسياسية تقتضى طبيباً نطاسياً يعالجها و يخفف من آلامها ، حينما بعث النبى صلى الله عليه وسلم داعياً إلى الله ؛ فهناك تسلط روما وفارس ، وهنالك تنافس وامتيازات بين مختلف طبقات البشر واستغلال اقتصادى ممقوت ، وفوق كل ذلك الأخلاق الذميمة الفاشية فى سائر أقطار العالم . وكذلك بلاد العرب نفسها لم تكن آمنة مطمئنة ، وفيها ما فيها من معضلات تحتاج فى حلها إلى زعيم بارع حاذق بأدواء الأمم ، فإن القوم كان قد عمّهم الجهل وغشيهم الانحطاط الخلقى والفقر والفوضى وما ينتج عنها من الغارات والحروب الأهلية ، والبلدان الساحلية العربية إلى بلاد اليمن ومقاطعة العراق الخصيبة كلها كانت خاضعة للفرس وحكومتهم ، وفى الشمال تسرب

النفوذ الرومى إلى ثغور الحجاز نفسها أو كاد ، وإن تَعْجَب فَعَجَبٌ تغلغل اليهود الماليين فى أعماق الحجاز واتخاذهم فيها لأنفسهم حصوناً منيعة حيث كانوا يأكلون الربا ويوقعون العرب فى حبائلهم وينشبون أظفارهم — أظفار الربا الفاحش — فى لحومهم وأبدانهم . وبإزاء شاطئها الغربى كان يرفرف لواء حكومة الحبشة النصرانية ، وهى التى تولت كِبَر الغارة على مكة منذ قليل من السنين . وكذلك كان بأرض نجران ، بين الحجاز واليمن ، عصبة أخرى للنصارى ، متصلة بالحبشة بشتى العلاقات السياسية والاقتصادية — كان هذا كله ولكن القائد الذى اصطفاه الله من بين عباده لهداية البشر ، لم يتعرض فى أول أمره لإحدى تلك المسائل المفصلة العديدة المتشعبة ، بل قام فى الناس يدعوهم ويهيب بهم بملء صوته أن يعبدوا الله وحده ويجتنبوا الطاغوت .

وما كان ذاك كذلك لأن هاتيك المسائل لم تكن فى شىء من الخطورة أو لم تكن مما يستحق الاهتمام به فى نظر القائد ،

بل الحق أنه تعرض لكل واحدة من تلك المسائل وأوجد لها حلا ميسوراً فيما بعد ، كما يعرف كل من له أدنى إلمام بالتاريخ ، لكنه فى أول أمره حصر جميع مجهوداته فى بث هذه الدعوة ، صارفاً وجهه عما عداها ؛ وذلك أن كل نوع من أنواع الفساد الاجتماعى والخلقى الذى يحدث فى المجتمع الإنسانى إنما ينشأ — حسب مايراه الإسلام — عن علة أساسية واحدة ، وهى أن يجعل الإنسان نفسه مستقلا بأمره غير مسئول أمام أحد ، وبلفظة أخرى أن يتخذ نفسه إلهه ، أو يتخذ من دون الله آمراً مطاعاً يخضع له وينقاد لأمره ، سواء كان ذلك الآمر من البشر أو من غيره . وما دام هذا الفساد يسرى فى عروق الحياة الاجتماعية ، فلا يمكن أن ينجح أى مشروع للإصلاح الظاهرى فى اقتلاع جراثيم الشرور الفردية أو الاجتماعية ، فإن سددْت ثلمة ظهرت بجانبها ثلمات أخرى ، فلا سبيل إلى الشروع فى مهمة الإصلاح الحقيقى إلا بأن تُجَرَّدَ العقول من هوى الاستقلال بنفسها وشهوة الأنانية الكاذبة ويُعلّم الإنسان ويُلقَّن تلقيناً أن :

« هذا الكون الذى نعيش فيه ونتنفس لا يجرى أمره من غير سلطان قاهر ، بل الحق أن له ملكا هو الحاكم المتصرف فى شئونه ، وما حاكميته بحاجة إلى أن تسلم بها أو تعترف بها ، وكذلك لا تقدر أن تقضى عليها ولا تتمكَّن من الخروج عن حدود ملكوته . فما تبجُّحك بالاستقلال بإزاء هذه الحقائق الثابتة إلا ظن خاطئ وغلطة حمقاء ، عائد ضررها عليك ، لا يجنى شرها إلا أنت . فالعقل والشعور بالحقيقة الواقعية يقتضيان أن تطأطئ رأسك أمامه ، جلَّت قدرته وتعالى شأنه ، وتكون له عبداً قانتاً مطيعاً لأوامره » .

وكذلك ينبغى أن تعرض على الإنسان وجهة أخرى من تلك الحقيقة الناصعة « بأنه ما من حاكم ولا ولى ولا مليك مقتدر لهذا الكون إلا ذلك الإله الواحد الفرد الصمد ، وهو الحاكم القاهر الذى لا معقب لحكمه ولا شريك له فى الملك ، ولا ينفذ فى السموات والأرض إلا أمره . فلا تكن إلا عبداً لله ولا تأتمر إلا بأمره ولا تسجد لأحد من دونه ، فإنه ليس هناك

من صاحب جلالة ، فالجلالة كلها مختصة بذاته ، جل وعلا ، وليس هناك من صاحب قداسة ، فالقداسة بأسرها مركزة فيه ، تقدست أسماؤه ؛ وليس هناك من صاحب سمو ، فالسمو لا يستحقه أحد من دونه ، تعالى شأنه ؛ وليس هناك من صاحب سيادة ، فالسيادة بأجمعها مقتبسة من شرفه ، جلت قدرته وعظم شأنه ، ولا شارع من دونه ، فالقانون قانونه ، ولا يليق التشريع إلا بشأنه ولا يستحقه إلا هو ؛ ولا ملك ولا رازق ولا ولى إلا هو ، وليس من دونه من يسمع دعاء الناس ويستجيب لهم . وليست مفاتيح الكبرياء والجبروت إلا بيده ، ولا علو لأحد ولا سمو فى هذه الدنيا ، فكل من فى السموات والأرض عباد أمثالكم والرب هو الله وحده . فارفض كل نوع من أنواع العبودية والطاعة والخضوع لأحد من دونه ، وكُن عبداً لله ، قانتاً مستسلماً لأوامره » .

فهذا أصل كل إصلاح وأسه ، وعلى هذا الأساس يقوم ويؤسس من جديد بنيان السيرة الفردية والنظام الاجتماعى كله على طراز خاص ، وبذلك يُحَلّ جميع ماحدث من المشاكل

فى المجتمع البشرى منذ أبى البشر آدم إلى يومنا هذا ، وبذلك يُفك كل ما يحدث من المعضلات فى المستقبل إلى يوم القيامة ، وذلك بأسلوب فذّ مبتكر لم يسبق له مثيل .

قام سيدنا ومولانا الرسول النبى الأمى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بدعوة هذا الإصلاح الأساسى من غير تهيّؤ سابق ومن غير أن يأتى بأعمال تمهيدية للشروع فى هذا المقصد الأسمى ، بل دعا الناس إلى ذلك مباشرة ، ولم يؤثر أن يسلك طرقاً ملتوية للوصول إلى الغاية المنشودة من هذه الدعوة بأن يأتى بادىء ذى بدء بشىء من الإصلاح السياسى والاجتماعى يستهوى به النفوس ويسحر الألباب حتى ينال بذلك شيئاً من القوة الحاكمة ، فيتدرج منها ، مستخدماً إياها ، إلى الغاية المنشودة التى أراد أن يدعو الناس إليها . لا ، لم يكن هذا ولا ذاك ، والذى نشاهده أن عبداً من عباد الله قام فى بطحاء مكة وصاح فى أهلها بأعلى صوته أن لا إله إلا الله ، ولم يلتفت إلى شىء دون ذلك طرفة عين ، ولم يكن ذلك فحسب عن جرأة

وتحمس فى الدعوة خص الله الأنبياء بهما ، إنما هو المنهاج الحقيقى للحركة الإسلامية والنهوض بها ، لأن النفوذ والسُّمعة التى تجلَب بوسائل أخرى لا تُسمن ولا تغنى من جوع فى هذا الأمر .
والذين يعاونونك على أسس غير هذا الأساس — لا إله إلا الله — لا يمكنك أن تجد منهم عوناً يشد عضدك ويؤازرك فى مهمة التشكيل الجديد المبنى على هذا الأساس ، فلا ينفعك فى هذا العمل إلا الذين ما دفعهم إليك إلا كلمة « لا إله إلا الله » ، الذين يجدون من أنفسهم ميلا وانجذاباً إلى هذه الكلمة وحدها ، والذين اتخذوها أساساً لحياتهم وما أجابوا دعوتك ولا نهضوا للكفاح معك إلا على هذا الأساس . فالطراز المخصوص من الحكمة والأناة والتدبر ، الذى لا مندوحة عنه فى القيام بالدعوة الإسلامية وتنظيم شئونها ، يقتضى أن يكون الشروع فى العمل بالدّعوة إلى هذا التوحيد الخالص من غير تمهيد ولا مواربة .

فنظرية التوحيد هذه ليست بعقيدة دينية فحسب كما تقدم

ذكره آنفاً ، بل إنما تقضى هذه النظرية على نظام الحياة الاجتماعية المبنى على أسس استقلال الإنسان بأمره أو حاكمية غير الله وألوهيته ، وتنقلع بها هذه الشجرة الملعونة من جذورها وينهدم هذا البنيان من أساسه ؛ ويقوم وينهض بُنيان جديد على أساس آخر غير هذا الأساس .

وهؤلاء المؤذنون اليوم يؤذّنون من مآذنهم خمس مرات فى كل يوم وليلة ويُنادون بأعلى أصواتهم : « أشهدُ أن لا إله إلا الله » ، وأنت ترى أن الناس على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم يسمعون هذا النداء ولا تُقض مضاجعهم لسماعه ، وذلك أن الداعى لا يعرف : إلامَ يدعو الناس ؟ ولا الناس يتفطّنون إلى ما تَضَمه الكلمة بين جنبيها من دعوة سامية وغاية جليلة ، ولكن إذا علمت الدنيا مايشتمل عليه هذا النداء من غاية بعيدة المدى ، وأن المنادى ينادى بعزم وإصرار ، لانقلبت الأرض غير الأرض ولتنكرت الوجوه . وما يدريك كيف تستقبل الدنيا — الدنيا التى رضعت بلبان الجاهلية وترعرعت فى مهدها — هذا النداء ، وهى تعرف أن

المنادى يقول أن لا ملك لى إلا الله ، ولا حاكم إلا الله ، ولا أخضع لحكومة ، ولا أعترف بدستور ، ولا أنقاد لقانون ، ولا سلطان علىّ لمحكمة من المحاكم الدنيوية ، ولا أطيع أمراً غير أمره ، ولا أتقيد بشىء من العادات والتقاليد الجاهلية المتوارثة ، ولا أسلّم شيئاً من الامتيازات الخاصة ، ولا أدين لسيادة أو قداسة ، ولا أستخزى لسلطة من السلطات المتكبرة فى الأرض ، المتمردة على الحق ، وإنما أنا مؤمن بالله ، مسلم له ، كافر بالطواغيت والآلهة الكاذبة من دونه . فما يدريك ، هل تسمع الدنيا وأهلها هذا النداء فتسكت عليه ؟ لا ، لا ، والله ، إنها تنقلب عليك عدوًّا وتتنكر وجوه أهلها لك ويعلنون الحرب عليك بمجرّد سماع هذه الكلمة ، سواء عليك أردت القتال أم لم ترد ، فإنهم يحاربونك لا محالة ويترقبون لك بالمرصاد ، وما إن يسمعوا المؤذن يؤذّن والمنادى ينادى بهذا النداء الحقيقى ، إلا وترى الأرض تبدلت غير الأرض والسماوات ، وتجد الناس حولك كأنهم تحوّلوا عقارب وثعابين تريد أن تلدغك ، أو انقلبوا وحوشاً

ضارية تبتغى أن تنشب مخالبها فى بدنك وتفترسك افتراساً .

وهكذا كانت الحال حينما قام النبىّ صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى هذه الكلمة ، فإن المنادى — صلوات الله وسلامه عليه — كان على علم بما يدعو إليه ، وكذلك الذين بلغتهم كلمته لم يخف عليهم ما ترمى إليه هذه الكلمة من هدف ، فكل من أحسّ بالخطر وأدرك ما عسى أن يصيبه من ضرر فى شىء من مصالحه من جراء انتشار هذه الدعوة ، وثب وثبة وشمّر أذياله لإخفات هذا الصوت المبارك و إطفاء هذا النور الإلهى ؛ أحسّ السدنة والكهنة فى هذا الصوت خطراً على سدانتهم وكهانتهم ، ورأى رؤساء العشائر أن هذا النداء سيأتى بنيان رئاستهم من القواعد ، وأدرك الرأسماليون والمتبجحون بأنسابهم وسلالتهم أن هذا الشرف الذى استبدوا به من دون عامة الناس صائر إلى الانقراض لامحالة ، وكذلك هُواة القومية والذين ورثوا التقاليد عن آبائهم واتّبعوها وعكفوا عليها كأنها أوثان بنفسها أحسوا بالخطر الداهم على تلك العادات العريقة .

و بالجملة أحس كل من عُبَّاد هاتيك الأصنام المختلفة الألوان أنّ صنمه أصبح على شفا جرف هار ، وأن الطواغيت التي يعبدونها من دون الله محكوم عليها بالانقراض والفناء ، فوقفوا فى وجه الدعوة متحدين متساندين ، عاقدين العزم على قمعها و إلقاء العراقيل فى سبيلها ، وذلك بعد ما كانوا يتناصرون فيما بينهم و يتقاتلون منذ أمد بعيد .

ففى مثل هذا الحال لم يستجب للدعوة إلا من كانت فطرته نقية مستعدة لقبول الحق و إدراك الحقيقة ، ومن كان مفطوراً على الديانة والصدق بحيث لا يبالى بعد ما عرف الحق وذاق حلاوته أن يقتحم الشدائد و يركب الأهوال ولا يحفل فى سبيله بأن يقع على الموت أم يقع الموت عليه . ولا شك أن الدعوة كانت بحاجة إلى أمثال هؤلاء الرجال ، فالذين استجابوا لله ولرسوله بادىء ذى بدء ما كانوا يتجاوزون عدد الأنامل ، ثم جعل عددهم يزداد ، يأتون إلى النبى صلى الله عليه وسلم فرادى وجماعات ، حتى جعلت الدعوة تنمو صعداً ، و بدأت المقاومة تشتد

كل يوم ؛ فمنهم من طرد من عمله وأبعد عن مكاسب رزقه ، ومنهم من أخرج من داره ، ومنهم من فارقه أصدقاؤه ومعارفه وأقرباؤه الأدنون ، ومنهم من ضرب ضرباً مبرحاً وحبس فى السجن وسحب على رمال البطحاء فى الظهيرة ، ومنهم من رمى بالحجارة وقوبل بالسب والشتم على مرأى من الناس ومسمع ، ومنهم من فقئت عينه وشج رأسه ، ومنهم من أغرى بالشهوات من النساء والأموال والسيادة والإمارة وأطمع فيها إطماعاً . لقد كان هـذا كله ولم يكن عنه مندوحة ، لأن الحركة الإسلامية ما كانت لتقوى وتزداد نمواً وازدهاراً إلا بالصبر على هذا البلاء وتلك المكاره ، وقد كان من حسنات تلك الاضطهادات وثمراتها الأولى أنه ما كان ليتجرأ على تلبية هـذه الدعوة والاستجابة لها من ضعفت عزيمته وساءت أخلاقه وطباعه فما استجاب لهـا إلا من كانوا خيرة السلالة البشرية وغرة الإنسانية ، وكانت الدعوة حينذاك جد مفتقرة إلى أمثال أولئك الرجال النجباء ، والحق أنه لم يكن من سبيل لتمييز الصالح

من غير الصالح وانتقاء الصالحين من بين الجم الغفير من الناس إلا بأن يضطر كل من يلبي الدعوة إلى أن يجتاز تلك العقبة الشديدة ، عقبة الاضطهاد والتضييق القاسى الجائر .

وزد على ذلك أن الذين آمنوا بالله و برسوله لم يقاسوا تلك الشدائد وما صبروا على تلك المكاره لأغراضهم الذاتية أو لمنافعهم العائلية أو مطامحهم القومية . ففى سبيل الله ابتلوا بأنواع من الأذى من الضرب والجوع ، وفى سبيل الحق بذلوا مهجهم وأرواحهم ، وفى تلك السبيل المباركة أصبحوا كغرض تعاوده رماة السوء والجوْر من كل جانب . فكانت النتيجة أن ازدادوا إيماناً على إيمانهم وتكونت فيهم تلك العقلية الإسلامية الصحيحة التى كانت الحاجة إليها ماسة ، وكذلك تطبعوا بالأخلاق الإسلامية الزكية ، وما زالوا يزدادون حباً لله وصلابة فى الدين وإخلاصا فى التفكير والعمل ، وتشبعت أرواحهم بالفكرة الإسلامية وامتزجت بلحومهم ودمائهم ، وكان تكوّن تلك العقلية الإسلامية الخالصة أمراً طبعياً فى « مدرسة الفتن والشدائد »

هذه . فإن الرجل إذا بدأ يعمل ، واضعاً نصب عينيه مطمحاً جليلا يقاسى فى سبيله أنواعا من الشدائد من الضرب والحبس والجوع والتشريد والنفى ، ويجتاز فى هـذا الـكفاح مراحله العديدة وعقباته الشديدة المتشعبة — إذا قام بكل ذلك استشعرت نفسه ذلك المطمح الأسمى نتيجة لتلك التجارب الذاتية واصطبغت حياته كلها بصبغته ، وكأنى به تتحول شخصيته كلها إلى ذلك المطمح وتفرغ فى قالبه إفراغاً . ولأجل تنشئتهم على هذه السجية فرضت عليهم الصلوات الخمس ، حتى تظل أنظارهم مرتكزة على مطمحها الأسمى ، وتبقى عزائمهم معقودة على الغاية المنشودة ، وتقوى عقيدتهم بتجديد عهد الولاء والطاعة لمن بيده ملـكوت السموات والأرض، ويزداد ذكرها كمية الله العزيز الذى أسلموا له وجوههم . فُرضت عليهم ليزدادوا ثقة وإيماناً بأن الله الذى عاهدوه على امتثال أوامره فى هذه الحياة الدنيا إنما هو عالم الغيب والشهادة ، وأنه مالك يوم الدين ، وأنه هو القاهر فوق عباده، فتطمئن قلوبهم بطاعته ولا تمر بها خاطرة من طاعة غير الله أبداً .

فالذين سبقوا غيرهم إلى الإسـلام وآمنوا بكلمة الله كانوا يُرَبَّوْن على هذا الطراز ، ومن جانب آخر كانت هذه التربية الفذة المبتكرة أكبر مساعد فى انتشار الدعوة وظهور كلمتها ؛ فإن الناس كانوا يشاهدون بأم أعينهم أن نفراً من أنفسهم يُفْتَنون ويُؤْذَوْن بالضرب والحبس ويُخرجون من ديارهم فلا يتضعضعون ولا تتزلزل أقدامهم ، فيرجع أولئك إلى أنفسهم يتساءلون : لم هذا التعذيب ؟ وعلامَ هذا التضييق والاضطهاد ؟ وإذا استيقنت أنفسهم أن مثل هذا البلاء لم يأتهم فى سبيل الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، وأنهم ما يُفتنون مثل هذه الفتنة قضاءاً لمآربهم الذاتية ، وإنما يذوقون مايذوقون من العذاب لكلمة حق تجلّى لهم صدقها ، وانكشفت لهم آياتها ، — إذا استيقنت أنفسهم كل ذلك تطلعت إلى استطلاع ذلك الشيء الذى يُؤْذى القوم فى سبيله ويتحملون لأجله هذه الشدائد الهائلة ، وإذا قيل لهم إن ذلك الشيء ليس إلا كلمة واحدة هى « لا إله إلا الله » — كلمة أحدثت فيهم مثل هذا الانقلاب الصالح ، وهى التى لأجلها فارقوا نعيم الحياة ، وهى التى يُضحُّون

فى سبيلها بالأنفس والأموال والأولاد وبكل ما فى هذه الحياة الدنيا من مُتع وملذات . إذا عرفوا ذلك انجلت العمايات عن قلوبهم ، وانقشع كل مايغشى أفئدتهم من سحب الجهل انقشاعاً ، فيقع ذلك الحق من قلوبهم موقع الغيث من التربة الصالحة ، ومن ثمَّ ترى أنه لم يستكبر منهم عن دعوة الحق إلا من أعمته نعرة السيادة الجاهلية وتعَظُّمُها بالآباء ، أو التهافت على مطامع الدنيا وشهواتها ؛ وأخذ الناس يتهافتون على الدين الحق و ينجذبون إلى الدعوة انجذاباً ؛ فمنهم من انجذب إليها بمجرد سماعها ، ومنهم من سعى سعيه يقاومها و يدفعها عن نفسه حيناً من الزمن ثم خضع لجلال الحق ، حتى أنه لم يبق فى الجاهلية إلا من حُرِم الأمانة ونزَاهة الرأى . وفى خلال تلك المدة مُثلت الدعوة ومبادؤها وما تدعو إليه من إصلاح شامل ونظام للحياة جامع — مَثّلهَا صاحبها والقائم بأمرها صلوات الله عليه وسلامه بحياته الشخصية أجمل تمثيل ، حتى أنه كان يتراءى للناظر روح الإسلام الحقيقى فى كل ما يصدر عنه صلى الله عليه وسلم من قول

أو فعل أو عمل ، وأمكنهم أن يروا الإسلام متمثلاً فى مرآة أخلاقه الزكية وحياته الطيبة الطاهرة . وهذا موضوع جليل يحتاج إلى شيء من الشرح والتفصيل ، ولكن ضيق نطاق المقام لا يسمح بذلك ، إلا أننى مفض إليكم بأمور عديدة مهمة منه ، متوخياً الإيجاز حسب ما أستطيع .

كانت زوجه خديجة بنت خويلد رضى الله عنها من أغنى الناس فى الحجاز وأكثرهم ثراء ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يتَّجِرُ بمالها ، وذلك قبل انبثاق فجر النبوّة . ولكنه لما اصطفاه الله للرسالة وبدأ يدعو الناس إلى كلمة الحق ، أخذت تجارته فى الكساد ، ولم يكن بد من ذلك ، لأنه صلى الله عليه وسلم قد تفرّغ لأداء مهمة الرّسالة وانقطع للدّعوة انقطاعاً ، وانقلبت العرب كلها عدوًّا له ولدعوته . وأما ما ادّخره هو وصاحبته البارّة الكريمة من أموال التجارة ، فقد جادا به فى سبيل الدّعوة وأنفقاه كله فى سنين عديدة عن سخاء وطيب نفس ، حتى إنه آل الأمر إلى أن النبى صلى الله عليه وسلم لما ذهب إلى الطائف

ليدعو أهلها إلى كلمة الله ودينه الحق ما تسنَّى له أن يجد راحلة — حتى ولا حماراً — يركبها فى طريقه إليها ، وهو هو الذى كان بالأمس من أغنى تجار الحجاز وأكثرهم مالا وجاهاً .

جاءه ناس من قريش فقالوا : « إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالِنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت إنما تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقْطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملَّكناك علينا ، وإن كنت تريد امرأة نُزَوّجْكَ أجمل نسائنا » . عرضوا عليه ذلك ، ولكن الذى اصطفاه الله لإنقاذ البشر من براثن الكفر والجهل والبؤس والشقاء ، وليضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، لم يرضَ عن دعوته بديلاً ، ورضى بنصيبه من قومه أن يقابَل بالسّب والشتم ويُؤذَى بأنواع الشدائد والآلام ، فأجابهم قائلا : « مالى وما تقولون ، ماجئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا

وأنزل عَلَيَّ كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردّوه عَلَيَّ أصبر لأمر الله حتى يحكُمَ الله بيني وبينكم » .

مرَّ الملأ من قريش برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعنده صهيب وبلال وعمار وغيرهم من ضعفاء المسلمين ، فقالوا يا محمد : « أرضيت بهؤلاء من قومك ؟ أهؤلاء الذين مَنَّ الله عليهم من بيننا ؟ أنحن نصير تبعاً لهؤلاء ؟ اطردهم ، فلعلك إن طردتهم أن نتبعك » . ولكن الذي خصه الله من بين رسله برسالة الإنسانية الكاملة والقيام بالعدل والقسط بين الناس ، أَبَى أن يطرد الضعفاء والمساكين من مجلسه لأجل هؤلاء الأشراف المتبجّحين بسيادتهم ، الشامخين بأنوفهم .

لم يحفل النبي صلى الله عليه وسلم في سبيل الدعوة ونشر كلمتها بشيء من مصالح بلاده أو قومه أو عشيرته أو أسرته . لم يهتم منها في قليل ولا كثير ، وهذا هو الذي جعل الناس يستيقنون

أنه صلى الله عليه وسلم إنما قام لسعادة المجتمع البشرى قاطبة ، وهذا الذى جذب إلى دعوته أناساً من كل جنس ومن كل أمة . فإنه لو عناه وشغله أمر أسرته وارتفاع شأن بنى هاشم من أهله لما كان من الميسور أن يقبل على دعوته غير بنى هاشم من العرب ، ولو كان من همه أن يحمى قريشاً من غيرهم و يذود عن سيادتهم السياسية لما أمكن أن يُلَبِّيَ دعوته قبائل العرب من غير قريش ، ولو كان من مهمته إعلاء كلمة العرب ورفع منار القومية العربية لكان من المستحيل أن يأوى إلى كنفه و ينضوى تحت لوائه بلال من الحبشة وصهيب من الرّوم ، وسلمان من الفرس . فما لا مرية فيه أن الذى جذب الناس جميعاً إلى هذه الدعوة ، أعلاهم وأدناهم ، أسودهم وأحمرهم ، إنما كان حبه الخالص إليها وتجرده التام من كل نوع من أنواع الأغراض الذاتية والعائلية أو القومية والوطنية .

ولما أن أذن الله لنبيه ، صلى الله عليه وسلم ، فى الهجرة من مكة المكرمة فوّض جميع الودائع التى أودعه إياها أعداؤه من

بنى قومه إلى على ابن عمه أبى طالب موصياً إياه بردها إلى كل واحد منهم . فالذى لا يهمه إلا حطام هذه الدنيا الدنيئة يستبد فى مثل هذه الظروف بكل ما تصل إليه يده و يعده مغانم حلوة ؛ ولكن العبد القانت لله جعل من همه أن يؤدى الأمانات إلى أهلها من خصومه الذين كانوا يتربصون به الدوائر و يتحينون منه الفرص ؛ وذلك حينما كانوا أجمعوا أمرهم على قتله والكيد به . وهذا هو الخلق العظيم الذى كان له أثره فى نفوس العرب ، ور بما كان أدهشهم لجلال منظره وعظم شأنه . ومن أجل ذلك يظهر لى أنهم حينما برزوا لقتاله ، صلى الله عليه وسلم ، بعد عامين من ذلك وناهضوا صفوف المسلمين وجها لوجه فى وقعة بدر ، لم يكونوا مطمئنين إلى ما خرجوا له من القتال ؛ بل الذى أراه وأجزم به أن ضمائرهم ر بما كانت تؤنبهم على ما جاءوا له وتقول لهم : ما بالكم ؟ من تقاتلون ؟ أتقاتلون رجلاً لا ينسى حقوق البشر حتى ولا فى الساعة التى يريد فيها الخروج من بين قوم كانوا واقفين له بالمرصاد منتهزين الفرصة للفتك به » . ولعمرى

أنهم ، وإن قاوموه بأيديهم وحاربوه بأسلحتهم تعنتاً وعناداً لا بد أن كانوا قد أحسوا وخزاً فى ضمائرهم وحزَّةً فى نفوسهم على ما اجترأوا عليه من قتال الأمين المأمون المشهود له بالصدق والعفاف وطهارة الأخلاق . وأى عجب ، إذا كان ذلك عاملا من العوامل الخلقية التى سبّبت هزيمة الكفار يوم بدر .

وبعد كفاح عنيف وجهاد متواصل استمر ثلاثة عشر عاماً قد آن للاسلام أن يؤسس دولة صغيرة فى المدينة ، على منوّرها ألف تحية وسلام ؛ وذلك حينما تهيّأ له زهاء ثلاثمائة رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، الذين قد رُبّى كل واحد منهم تربية إسلامية كاملة بحيث يستطيع أن يقوم بما يفوّض إليه من الأعمال ، قيامَ المسلم الصادق بواجباته ، وكان هؤلاء الرجال من أصحاب النبى ، صلى الله عليه وسلم ، مستعدين إذ ذاك للاضطلاع بأعباء دولة إسلامية وإدارة شئونها . فأقيمت الدولة وأُسس بنيانها . وعاش بعد ذلك النبى صلى الله عليه وسلم . عشر سنين يقوم بشئون الدولة ويشرف على إدارتها بنفسه . ففى هذه المدة

الوجيزة درّب أصحابه تدريباً على تنظيم دوائر الحكومة وإدارة كل فرع من فروعها على المنهاج الإسلامى المستقيم . وفى خلال هذه المدة نضج التفكير الإسلامى وانتقل من دور الفكرة المحضة إلى نظام للمدنية شامل ، قد تبين فيه للناس كل ناحية من نظم الإسلام الإدارية والتعليمية والقضائية والاقتصادية والمالية والاجتماعية ، وتجلّى للملأ كل جانب من سياستها الدولية وخطتها فى السِّلم والحرب ؛ ووُضعت المبادىء والقوانين لكل فرع من فروع الحياة ، وأُجريت تلك المبادىء على الحياة العملية ونُفِّذَت فيها ؛ وأُعِدَّ العاملون للجرى على هذا المنهاج والعمل بهذا الطراز الخاص بالتعليم والتربية والتجارب العملية . فمثّل هؤلاء « الحكم الإسلامى » تمثيلا تحولت بفضله تلك الدولة المدنية الصغيرة فى ثمان سنين إلى دولة عظيمة بسطت جناح رحمتها على بلاد العرب كلها . فكلما رأى الناس الإسلام متمثلاً فى حياتهم ، متجلياً فى مرآة أعمالهم اليومية وشاهدوا نتائجه فى صورة بارزة ملموسة ، استيقنت أنفسهم أن الإنسانية إنما هى التى يرونها ، وأن لا رجاء

لاسعادة البشرية إلا فى كنفه ولا موئل للانسانية المعذبة إلا فى ظله . وهناك ترى أنه قد صدّق بالدعوة ودان بها ، حتى الذين وقفوا فى وجهها وحاربوها أعواماً طوالاً وعارضوها بكل وسائلهم فآمن بالله خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبى جهل ودخل فى دين الله أبو سفيان بن حرب ، وخضع لعظمة الدعوة وجلالها وحشي ، قاتل حمزة بن عبد المطلب ، عم النبى صلى الله عليه وسلم وأخيه فى الرضاعة ؛ وكذلك استسلمت لأمر الله زوج أبى سفيان ، آكلة الأكباد ، فاطمة بنت عتبة[1] ، واضطرت إلى الانقياد والإذعان لمن لم يكن أحد أبغض إلى قلبها منه .

ومما يؤسف له أن المؤرخين قد أعادوا وأبدأوا فى ذكر الغزوات حيث جعل الناس يزعمون أن هذا الانقلاب العظيم فى بلاد العرب إنما حدث بالحروب والمعارك الدامية ؛ ولكن الحق الذى لا مراء فيه أن الحروب التى حمي وطيسها فى بلاد

---

(١) فى كتب السيرة أن هنداً بقرت بطن سيد الشهداء حمزة رضى الله عنه وجذبت بين يديها كبده وجعلت تلوكها بأسنانها فلا تستطيع أن تسيغها

العرب بين دعاة الحق وخصومه لم يمتد لهيبها إلا بضع سنين ، وأن المعارك التي سخرت لأمر الإسلام أمة باسلة من أحلاس الحروب كالعرب ، لم يقتل فيها إلا ألف و بضع مائة رجل من كلا الجانبين . و إن كان لك علم بتاريخ الثورات فى العالم ، لما وسعك إلا الاعتراف بأن هذا الانقلاب ما أُريق فيه الدم إلا تحلة للقسم جدير بأن يُسَمّى انقلاباً سلمياً ثم لم يتغير بهذا الانقلاب طراز إدارة البلاد فحسب ، بل الحقيقة أنه قد تبدلت بهذا الانقلاب العقليات ، ووجهات الأنظار ، ومناهج التفكير ، وتغيرت طرق المعيشة والأخلاق والعادات تغيراً تاماً ؛ و بالجملة قد انقلبت الأرض أرض العرب ، ظهراً لبطن وتحولت الأمة بأسرها تحولاً تاماً . فالذين كانوا يأتون الفاحشة من رجالهم أصبحوا حماة لأعراض النساء ؛ والذين كانوا يعاقرون الخمر عادوا دعاة لإلغاء المسكرات واستئصال شأفتها ؛ والذين كان دينهم التلصص وقطع الطريق قد بلغوا من الورع والعفاف مبلغاً جعلوا يتحرجون الأكل عند أصدقائهم حذراً أن يكون من قبل أكل المال بالباطل ، إلى أن

أنزل الله فى كتابه ما جعلهم يطمئنون إلى ألا جناح عليهم فيما طعموا أكلوا فى مثل تلك الظروف ؛ والذين كان من شيمتهم شَنُّ الغارات والاعتداء على حقوق الناس قد صعدوا أعلى معارج الزهد والتُّقى ، حتى أنه لما فتحوا عاصمة بلاد الفرس وَجَد جندى من عامة جنودهم التاج الكسروىَّ الذى يناهز ثمنه ملايين الدنانير أسرّ به إلى أمير الجيش فى الليل المظلم مخفياً إياه تحت كسائه المرقع ، عسى أن لا يراه أحد فيكون له حسن الأحدوثة بهذا الحدث الجليل و يشوب صدقه و إخلاصه شىء من شوائب الرياء ؛ والذين ما كانوا يقيمون وزناً للنفس البشرية و يسفكون الدماء فى غير طائل و يئدون بناتهم وفلذات أكبادهم بأيديهم قد بلغوا من شعورهم بحرمة النفس أن أصبحوا لا يقدرون أن ينظروا إلى طائر صغير يراق دمه من غير شفقة ولا رحمة ؛ والذين ما كانوا من قبلُ من الأمانة والعدل فى شىء ، قد أصبحوا بررة يضرب المثل بأمانتهم وتعففهم ، حتى أنه لما ذهب لجباية الخراج عاملهم إلى يهود خيبر بعدما انقادت لأمر الإسلام وخضعت له

وقدّموا له مبلغاً كبيراً من المال ليخفف عنهم بعض ما عليهم من خراج الحكومة ، أبى أن يقبل الرشوة ورفضها رفضاً باتاً بل شطر جميع ما أغلَّته أرضهم فى ذلك العام شطرين وخيَّرهم أن يأخذوا أيما شاءوا . ولما رأت اليهود من العامل هذه المعاملة الغريبة أخذ العجب منهم مأخذاً عظيما واستولت عليهم الدهشة حتى صاحوا قائلين (ما قامت السموات والأرض إلا بمثل هذا العدل والقسط) ونبغ فيهم ولاة وأمراء ما كانوا يسكنون فى قصور الحكومة ، بل يعيشون بين الرعية فى مثل بيوتهم ، وكانوا يمشون فى الأسواق على أرجلهم ، ولم يكن لهم حرس على أبوابهم ، حتى أنه كان ميسوراً لكل فرد من أفراد الشعب أن يزورهم فى أية ساعة من ساعات الليل والنهار ؛ ونبغ فيهم من القُضاة من قضى لرجل من اليهود على الخليفة نفسه حينما رفع الخليفة القضية إلى المحكمة ، قضى لليهودى ولم يقبل دعوى أمير المؤمنين ، لأنه لم يتمكن من تقديم الشهود على دعواه غير ابنه ومولاه ؛ ونبغ فيهم من قواد العسكر من ردَّ الجزية برمتها

إلى أهل مدينة — وهى حمص من مدن الشام — حينما اضطر إلى إخلائها لمصلحة حربية ، مصرحاً لهم بأنهم — المسلمين — قد أخذوها جزاء منعتهم فوجب ردها للعجز عن هذه المنعة ، قائلاً : (قد شُغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم) .

فما كان جوابهم إلا أن تأثروا بصنعهم هذا وصاحوا قائلين : « لولايتُكم وعدلُكم أحبُّ إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم » ، ونبغ فيهم من السفراء من دخل بلاط رئيس قواد العساكر الإيرانية ، والجمع حافل غاصٌّ بأعيان القوم وأمرائهم ، دخل بلاطه فمثّل مبادىء الإنسانية الخالدة والإسلامية الكاملة تمثيلا رائعاً ، آخذاً بمجامع القلوب وانتقد ما شاهد هنالك من الفوارق بين الطبقات وعلوّ بعضها على بعض انتقاداً صريحاً جديراً بالموقف ، ويعلم الله كم من جنود الفرس ورجال عسكرهم ممن حضروا ذلك الحفل الحافل واستمعوا إلى كلام السفير المسلم ، وشاهدوا موقفه الرائع قد أحسوا بجلال دين الإنسانية وتأثروا بعظم شأنه فى ذلك

الموقف الرهيب نفسه ؛ ونشأ فيهم من الرعية من بلغ من شعوره بالمسئولية الخلقية أن كان أحدهم يقترف ذنباً ويرتكب جناية فيأتي الأمير ويعترف له بجنايته ويُلحّ عليه أن يُجْرى عليه حدود الله ولا يتهاون فى أمره ، وهو يعلم علم اليقين أنه تعدّى حداً من حدود الله ، يعاقب صاحبه بقطع اليد أو يُرجم بالحجارة حتى يهلك ؛ وذلك ليتطهر من أرجاس الإثم الذى اجترحه ولا يأتى ربه سارقاً أو زانياً . ونشأ فيهم من الجنود من كانوا لا يقاتلون ابتغاء للرزق ، بل كانوا يحاربون على نفقتهم إعلاء للكلمة التى آمنوا بها لا يريدون بها جزاءً ولا بديلا ، ولا يستأثرون بما تناله أيديهم من الغنائم بل يأتون بها كلها إلى أمير الجيش ليقضى فيها حسبما نزل به التشريع .

أرأيتك تحسب أنه كان من الممكن حدوث مثل هذا الانقلاب العظيم فى الخلق الاجتماعى والعقلية الجماعية بالحرب وحدها ؟ وها هى ذى صفحات التاريخ ماثلة بين عينيك ، فهل تجد فيها من نظير لحدوث مثل هذا التحول المدهش المعجز فى المجتمع الإنسانى بفضل السيوف ؟

ومن الغريب المدهش الذى يُقضى منه العجب أنه ما أسلم فى ثلاث عشرة عاماً إلا زهاء ثلاثمائة رجل ولكنه فى العشر السنين الأخيرة قد أسلمت بلاد العرب كلها ودخلت فى طاعة الله . وهذه معضلة يستعصى على الناس حلها فيلجأون إلى تأويلات بعيدة يأباها العقل السليم ، والحال إن الأمر بيّن جلىّ لا غموض فيه ولا إبهام وذلك أنه ما دامت لم تتكون أوضاع الحياة ونظمها وفق التفكير الجديد ما كاد الناس يفطنون لما يدعو إليه هذا القائد الفذ وما يريد بناءه .

ومن ثمّ زالت تلك الأوهام والظنون التى كانت تقلبهم ذات اليمين وذات الشمال . فمن قائل فى دعوته : إن هو إلا شاعر أو ساحر أو كاهن . ومن قائل : إن بالرجل جُنّة ومنهم من يزعم أن صاحب الرسالة له أوهام وأحلام خدعته عن نفسه وزيّنت له الأقوال وأفانين الأخيلة وهكذا ذهبوا فى شأن الدعوة وصاحبها مذاهب بعيدة عن الحقيقة ، غارقة فى لجج الأوهام . فما آمن بادىء ذى بدء إلا من وهبهم الله من الذكاء وتوقد الفهم والبصيرة

ما جعلهم قادرين على استجلاء وجه السعادة البشرية من وراء هذه الدعوة ولكنه لما تشكل نظام للحياة شامل وكمل بناؤه على أساس هذا التفكير وشاهدوا بأم أعينهم ثمراته العملية ولمسوها بأيديهم ؛ لما شاهدوا كل ذلك علموا أن هذا هو الشيء الذي كان يقاسي في سبيله ذلك العبد القانت لله أنواعاً من الأهوال والشدائد ؛ فتزلزل بنيان المكابرة واللجاجة ولم يعد ممكنا أن تثبت لها قدم بعد ذلك فقد حصحص الحق وانكشف الغطاء عن وجه الحقيقة وأصبح من المستحيل لمن له عينان ، وجعله الله فيها من نور ، أن ينكر هذا الحق الصريح والحقيقة الملموسة .

هذه هي سبيل الانقلاب الاجتماعي الذي يريده الإسلام وهذا هو طريقه ، وعلى هذا الطراز يبتدىء ، وبمثل هذا التدريج يترقى . ومن الناس من يحسب حدوث هذا الانقلاب معجزة خارقة للعادة ، ويقول : أنّى لنا بمثل هذا الآن ؟ فإنه لن يتمّ إلا على يد نبي من الأنبياء ، ولكن دراسة التاريخ تدلنا من غير شك على أن حدوث ذلك الانقلاب كان أمراً طبيعياً ، فإنا

نشاهد فيه ربط الأسباب بمسبّباتها وصلة المقدمات بنتائجها .

فإن جرينا اليوم فى عملنا على ذلك المنهاج ، فلابد أن تظهر تلك النتائج بعينها التى ظهرت من ذى قبل . اللهم إلاّ أنه يحتاج إلى إيمان صادق وشعور إسلامى وحنيفية كاملة وانقطاع إلى المطمح وعزم راسخ وتضحية بالعواطف الشخصية وتجرد عن الأمانى والآمال الذاتية . يحتاج هذا العمل إلى كل ذلك ، وإلى رجال أولى عزم وجَلَد من الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ولم يلتفتوا بعد ذلك إلى شىء فى قليل ولا كثير ؛ والذين لا يتزحزحون قيد شعرة عما وضعوه نصب أعينهم من الغاية العليا ، مهما يكن من تقلبات الحوادث فى الدّنيا ، والذين يشرون الحياة الدنيا ، بالآخرة ويُضَحّون فى سبيلها بكل ما يتراءى لهم من آمال رقيهم ومستقبل معايشهم ولا يتحرجون من القضاء على آمالهم وآمال آبائهم وأقربائهم الذين كانوا يتمنّوْن لهم المستقبل الزاهر فى هذه الحياة الدنيا ويرجون منهم المعونة فى تقويم أَوَد حياتهم المادية والذين لا يحزنهم مفارقة ذوى القربى والأصدقاء ؛ والذين يقابلون

بصبر وجَلَد كل ما يعترض دون غايتهم من العقبات من البيئة والحكومة والقانون والأمة والوطن ويقاومونها مقاومة . فمثل هؤلاء الرجال هم الذين حملوا لواء الدعوة وأعلوا كلمة الله فيما مضى من الزمان وكذلك اليوم لايقوم بها إلا أمثال هؤلاء ولا يقدر على إنجازها والاطلاع بأعبائها إلا من كان على غرارهم وسجيّتهم . . .

[انتهى الكتاب بحمد الله تعالى]

تلخيص

حقائق سجلها الكاتب الكريم فى بحثه :

١ — تنشأ الحكومة فى الهيئة الاجتماعية والتاريخية بتفاعلها فيما بينها نشوءاً طبيعياً ، فتكون لها أمور بدائية لازمة ومحركات اجتماعية ، ومقتضيات فطرية ، تتجمع وتقوى حتى تنبعث فيها الحكومة انبعاثا .

٢ — لابد من جمع أسباب تلائم طبيعة الهيئة المنشودة للحكومة وفطرتها الخاصة وانتهاج طريق يوصل إلى مايقصد ، فلا جرم أن تقوم حركة توافق الهيئة وتلائمها فى طبيعتها ، وأن تتهيأ السيرة الفردية والأخلاق الاجتماعية التى تقتضيها تلك الهيئة المنشودة ، وكذلك لابد لها من زعامة وعمل إجتماعى تستدعيها هيئة ذلك النظام الخاص الذى نحن بصدد إيجادها

٣ — أول ماتمتاز به الحكومة الإسلامية عن غيرها من الخصائص أنه ليس لعنصر القومية حظ فى إيجادها وتركيبها وإنما هى دولة فكرية مؤسسة على مبادىء وغايات معينة واضحة .

٤ — يمتاز الاسلام من بين الأفكار (والمذاهب) من لدن أقدم عصور التاريخ إلى يومنا هذا بأنه يؤسس على بنيان (الفكرة)

فحسب نظاماً للدولة مطهراً من العصبيات الجنسية وأقذارها ويدعو الناس كافة إلى الإيمان بها والانضواء تحت لوائها حتى تتشكل دولة فكرية غير مقيدة بجنس أو قومية .

٥ — والميزة الثانية للدولة الاسلامية أن الأساس الذى يقوم عليه بناؤها والروح التى تتغلغل فى أحشائها هو تصور أن لاحكم إلا الله الواحد القهار ، ونظريتها الأساسية أن الأرض كلها لله وهو ربها والمتصرف فى شئونها ، فالأمر والحكم والتشريع كلها مختص بالله وحده :

٦ — أن البنيان الذى يقوم على أساس هذه الظرية الاسلامية يختلف عن الدول اللادينية اختلافا كلياً فى بنيتها وهيئتها التركيبية ، وهى تحتاج فى تأسيس بنيانها وإدارة شئونها إلى عقلية مخصوصة ، وسيرة من الطراز الخاص ؛ إذ هى تتطلب بسجيتها رجالاً يخشون الله ويخافون حسابه ، ويؤثرون الآخرة على الحياة الدنيا ، والذين يتمسكون فى كل حال بما وضع الله من الدستور ، وبما سن لهم من منهاج العمل للأبد من هؤلاء وحدهم تتكون الحكومة الإسلامية وهم الذين يقدرون على إدارة أمرها وتسيير دفة شئونها .

٧ — إن الحكومة الإسلامية لاتظهر خارقة للعادة بل لا بدلإيجادها من ظهور « حركة » شاملة مبنية على نظرية الحياة الإسلامية

وفكرتها ، وعلى قواعد وأقدار خلقية وعملية توافق منهاج الإسلام وتلائم طبيعته .

٨ — يقوم على أمر هذه الحركة رجال يظهرون استعدادهم التام للاصطباغ بهذه الصبغة من الإنسانية ، ويسعون فى نشر العقلية الاسلامية ويبذلون جهودهم فى بث روحه الخلقية فى المجتمع .

٩ — ثم يقوم على هذا الأساس الدينى نظام للتعليم والتثقيف يهيىء رجالاً من الذين امتزجت الفكرة الإسلامية بلحومهم ، ودمائهم ، والذين تثقفت أذهانهم واتسعت مداركهم اتساعاً يؤهلهم لتدوين نظام للأفكار والنظريات ومنهاج كامل للحياة العملية مبنى على مبادىء الإسلام وقواعده .

١٠ — ثم تقوم هذه الحركة — بمالها من السيادة الفكرية والعقلية — مكافحة ومقاومة للنظام الباطل والمعوج السائد فى المجتمع الإنسانى ورجالها متمثلين فى كل مايقولون ، وما يعملون تلك النظرية التى قاموا بالدعوة إليها .

١١ — تقوم هذه الحركة الدينية الشعبية وتنهض حتى تغير بجهادها المستمر العنيف أسس الجاهلية الفكرية والخلقية والنفسية والثقافية السائدة فى الحياة الاجتماعية حتى تقضى عليها .

١٢ — الحكومة القومية المتسمة بالإسلام لاتحقق ماتريد بل تعرقله

بدرجة قد تفوق عرقلة الحكومات الكافرة فمظهرها الإسلامى الخداع يمكنها من البطش بدعاة الاسلام .

١٣ — مالنا نضيع أوقاتنا سدًى فى انتظار الحكومة القومية المرجوة المتسمة بالاسلام كذباً وزوراً ؟ ولماذا نسفه أحلامنا بإضاعة مجهوداتنا فى سبيل إقامتها وتدعيم بنيانها ، حينما نعلم علم اليقين أن تلك الحكومة القومية ستكون عقبة كؤود فى سبيل غايتنا ، فضلا عن أن تكون مؤازرة لنا ومساعدة فى مهمتنا ؟ .

١٤ — إن الإسلام هو الحركة التى ترمى إلى بناء صرح الإنسانية بأسره على نظرية سيادة الله الواحد الأحد ، وهذه الحركة جارية على سنن واحد منذ أقدم عصور التاريخ ، وقادتها هم صفوة رجال الانسانية الملقبون برسل الله ، فلا بد لنا من اتباع هؤلاء القوادلأنه ليس — ولا يمكن أن يكون — لهذا النوع من الحركة من برنامج عملى غير ذلك .

١٤ — ولما كان التاريخ لم يحفظ لنا آثار عامة الرسل والأنبياء فلم يبق إلا سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم ، فهو القائد الوحيد من بين قواد هذه الحـــركة الذى نجد فى حياته الجليلة تاريخاً شاملا لهذه الحركة من أول عهدها بالدعوة إلى تأسيس الدولة الاسلامية ، مما يقتبس منه ويستضاء به

فى كل ما يعرض من المسائل والمشاكل بعد تأسيس الدولة من وضعيتها ودستورها وسياستها الداخلية والخارجية ونوع نظام الحكم .

١٦ — لم يكن من سبيل لانتقاء الصالحين المخلصين من بين الجم الغفير من الناس إلا بأن يضطر كل من يلبى الدعوة إلى أن يجتاز تلك العقبة الشديدة ، عقبة الاضطهاد والتضييق القاسى الجائر ، فكانت النتيجة أن ازدادوا إيماناً إلى إيمانهم ، وتكونت فيهم تلك العقلية الاسلامية الصحيحة التى كانت الحاجة ماسة إليها ، وكان تكوّن تلك العقلية الاسلامية الخالصة أمراً طبيعياً فى «مدرسة الفتن والشدائد»

١٧ — وفى خلال مدة الرسالة مثل الدعوة وما ترمى إليه من أهداف وغايات صاحبها والقائم بأمرها صلى الله عليه وسلم بحياته الشخصية أجمل تمثيل ، حتى أمكن الناس أن يروا الاسلام متمثلا فى مرآة أخلاقه الزكية وحياته الطاهرة .

١٨ — وبعد كفاح عنيف . وجهاد متواصل استمر ثلاثة عشر عاماً أمكن للاسلام أن يؤسس دولة صغيرة فى المدينة وذلك حينما تهيأ له ثلاث مائة رجل من صحابة النبى صلى الله عليه وسلم الذين رُبِّىَ كل واحد منهم تربية إسلامية كاملة بحيث يستطيع أن يقوم بما يُفَوض إليه من الأعمال قيام المسلم الصادق

بواجباته ، وكان هؤلاء الرجال من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مستعدين إذ ذاك للاضطلاع بأعباء الدولة الاسلامية وإدارة شئونها .

١٩ — لا يظن أنه كان من الممكن حدوث مثل هذا الانقلاب العظيم في الخلق الاجتماعى والعقلية الجماعية بالحرب وحدها وصفحات التاريخ ماثلة بين عينيك فلن تجد فيها نظيراً لحدوث مثل هذا التحول المدهش المعجز فى المجتمع الانسانى بالسيف .

٢٠ — إن الاسلام اليوم ليحتاج أول ما يحتاج إلى إيمان صادق ، وشعور إسلامى وحنيفية كاملة ، وانقطاع إلى الغاية ، وعزم راسخ ، وتضحية بالعواطف الشخصية ، وتجرد عن الآمال الذاتية ، ويحتاج كذلك إلى رجال ذوى عزم وجلد من الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا

استدراك واعتذار

حدث فى تلخيص الرسالة الثانية من هذه السلسلة وهى رسالة « نظرية الإسلام السياسية » تحريف فى عرض وجهة نظر مؤلف الرسالة الذى ذهب فيها فى ص ٦٠ إلى أن « الأمير له الحق أن يوافق الأقلية أو الأغلبية رأيها ، وكذلك له أن يخالف أعضاء المجلس (الشورى) كلهم ويقضى برأيه » بينما كانت الفقرة الثالثة ص ٥ فى التلخيص تناقض رأى المؤلف الكريم إذ تقول « يلزم الأمير برأى أهل الشورى المنتخبين من عامة المسلمين » .

وهذا مانأسف له أشد الأسف ، ولذلك كان من الأمانة العلمية أن نسارع بتسجيل هذا الاستدراك فى هذه الرسالة الثالثة التالية ، وإن كنا لانوافق الكاتب الكريم فيما ذهب إليه من رأى .
ولاشك أن قصة الخلاف حول « هل الشورى ملزمة للامام أم معلمة » قصة قديمة ، ونظن أن تجارب التاريخ العالمى فى الشرق والغرب — وخاصة دول الإسلام فى حياتها الطويلة — ومامنيت به من كوارث نتيجة الحكم المطلق والاستئثار بشئون الحكم وتجميعها فى يد رجل واحد ، ثم تعدد مهام الدولة وتعقد مشاكلها ، واتساع نطاقها وكثرة رعاياها ، ونضوج الوعى الشعبى للمسلمين ، بل وفوق

ذلك كله نص الكتاب الكريم « وأمرهم شورى بينهم » كل ذلك قد قطع فى الأمر وحال دون أن يترك لفرد واحد مهما كانت منزلته وعقليته أن يضرب برأى الأغلبية — ممن يساووه فى الكفاية والتقوى من أهل الحل والعقد من المسلمين — عرض الحائط .

ونعرض هنا لبعض نقاط فى قضية « الشورى ملزمة أم معلمة » على سبيل المثال لا الحصر .. فمن الوقائع التاريخية التى تثير الشبهة فى هذه القضية موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من غالبية الصحابة رضوان الله عليهم جميعاً عند عقد معاهدة الحديبية ، إذ كان الرسول صلى الله عليه وسلم إنما ينفذ أمر الله تبارك وتعالى عند قبوله لبعض شروط المشركين رغماً عن معارضة عمر رضى الله عنه وغيره من الصحابة لذلك ، فالأمر هنا كان أمر وحى يوحى إلى الرسول الكريم صلوات الله عليه وسلامه ولقد أنزل الله تبارك وتعالى من آياته تأييداً وبياناً لحكمة هذا الموقف العظيم :

« إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » .

ومن تلك الوقائع التاريخية موقف أبى بكر رضى الله عنه عند قتال المرتدين إذ أصرَّ الخليفة الأول — رضى الله عنه — على قتالهم رغم معارضة معظم الصحابة له ، وذلك لأنه إنما كان يتمسك

بالنص وهو أن الزكاة حق المال ، ولا مجال للمعارضة أو الاجتهاد مع وجود النص الصريح

ولعل أقوى دليل على أن الشورى ملزمة هو موقف الرسول صلى الله عليه وسلم فى غزوة أحد إذ أن الرسول صلى الله عليه وسلم أخذ برأى غالبية الصحابة فى الخروج لقتال العدو خارج المدينة مع مخالفة هذا الرأى لرأيه صلى الله عليه فى البقاء داخل المدينة ...

ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم وهو النبى الذى لا ينطق عن الهوى والذى أرسل رحمة للعالمين إنما يتبع فى ذلك أمر الله تبارك وتعالى له « وَشَاوِرْهُمْ فى الأمر » جزى الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم عن دينه خير الجزاء ، وهدانا لاتباع سنته واقتفاء أثره ، ففيهما النجح الحقيقى والتوفيق الكامل .

سبحانك اللهم وبحمدك ، نشهد أن لا إله إلا أنت نستغفرك ونتوب إليك .

لجنة الشباب المسلم

تصويب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٧٥	٩	الصريح	الصراح
٧٧	٥	والاطلاع	والاضطلاع

منشورات دار العروبة للدعوة الإسلامية

باللغـــة العربية

١ — نظرية الإسلام السياسية
٢ — منهاج الإنقلاب الإسلامى
٣ — الدين القيم
٤ — الإسلام والجاهلية
٥ — معضلات الاقتصاد وحلها فى الإسلام
٦ — شهادة الحق
٧ — نظام الحياة فى الإسلام
٨ — الجهـاد فى سبيل الله
٩ — الجماعة الإسلامية(دعوتهاو أهدافها و منهاج عملها)
١٠ — الإسلام ودعوته

عنوانا بباكستان :

دار العروبة للدعوة الإسلامية

راولبندى — Rawlpindi

(باكستان) — (Pakistan)

دعوتنا

١ — دعوتنا للبشر كافة والمسلمين خاصة أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً ولا يتخذوا إلها ولا ربا غيره .

٢ — ودعوتنا لكل من أظهروا الرضا بالإسلام دينا أن يخلصوا دينهم لله ويزكوا أنفسهم من شوائب النفاق وأعمالهم من التناقض .

٣ — ودعوتنا لجميع أهل الأرض أن يحدثوا إصلاحا عاما فى أصول الحكم الحاضر الذى استبد به الطواغيت والفجرة الذين ملأوا الأرض فسادا ، وأن ينتزعوا هذه الإمامة الفكرية والعملية من أيديهم حتى يأخذها رجال يؤمنون بالله واليوم الآخر ويدينون دين الحق ولا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً .

الجماعة الاسلامية بباكستان

الثمن ٤ قروش

مطبعة دار الكتاب العربى